مكانة "مختصر القدوري" في الفقه الحنفي

عبد الله نذير أحمد مزي

المقدمة:

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، وصلوات الله تعالى وسلامه على سيد الأولين والآخرين، معلم الناس الخير، سيدنا محمد وعلى آله الأطهار وصحبه الأبرار وكل من والاه إلى يوم الدين.

وبعد، فقد تفنن الفقهاء في نشر علم الفقه في أوساط المجتمع الإسلامي كافة، بطرق وأساليب شتى عبر العصور والأمصار: فوضعوا كتباً خاصة لكل مذهب من المذاهب الأربعة المشهورة، تارة مقترنة بالأدلة والحجج المؤيدة لكل قول، ليدرك القارئ أصل قول ومذهب المجتهد؛ وتارة أخرى: متوناً مختصرة، مجردة عن الأدلة، تيسيراً وعوناً للمبتدئين على الحفظ والاستذكار، وتذكرة وعوناً للعلماء والمفتين، علماً بأن هذه المسائل الفقهية درست ونُقحت وصيغت صياغة علمية، وعلق عليها من أفاضل أئمة كل مذهب عبر القرون، كما أنها أشبعت بحثاً من حيث الدليل والتعليل والمناقشة والتخريج والترجيح، ومظانها معلومة ومعروفة.

وعلى المنوال الأخير وضع الإمام أبو الحسين أحمد بن محمد القدوري الحنفي، كتابه المختصر **مختصر القدوري** أو متن القدوري في فقه المذهب الحنفي، و**مختصر القدوري** يُعد: أهم متون فروع المذهب من بين المتون الأربعة المعتمدة في المذهب. ومن هنا اهتم فقهاء الحنفية اهتماماً بالغاً بهذا المختصر، حتى زاد ما كُتِب حول هذا الكتاب من شروح وحواشٍ وتنبيهات واستدراكات وترجيحات وتصحيحات ومختصرات وترجمة ما يربو على مائة كتاب، وقد بلغ من تقدير فقهاء الحنفية لهذا المختصر أنهم لا يسمّونه إلا "الكتاب" أو "المختصر المبارك" ونحوهما من ألقاب التقدير والإجلال.

اعتنى المسلمون من أصحاب المذهب الحنفي بهذا المختصر عناية فائقة، وخاصة أحناف القارة

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الهندية وتركيا، والدول الإسلامية المستقلة عن الاتحاد السوفياتي سابقاً، فقد كان لهؤلاء شأن آخر من الاحتفاء والتعظيم لهذا المختصر المبارك، ويتمثل ذلك في الحفظ عن ظهر قلب وتحفيظ الصغار له وإقرائه، وشرحه وترجمته، وترجمة بعض شروحه إلى اللغات المحلية والقومية، حتى أصبح الكتاب الأول لطلبة الفقه الإسلامي في المدارس الدينية، ومن شدة اعتقادهم وحبهم **للمختصر** يقرأونه لدفع الكوارث والشدائد والنوازل تيمناً وتبركاً.

وهذا ما دفعني للبحث والكتابة عن حقيقة هذا المؤلَّف ومؤلِّفه، والبحث عن سر هذا القبول المنقطع النظير لهذا المختصر، ومعرفة أسلوب المصنِّف في العرض، وسبب ترجيح **المختصر** على سائر المتون في المذهب، وجمع بعض ما سطره العلماء عن المصنَّف ومُصَنِّفِه من الإطراء والثناء، ومكانة هذا الكتاب في المذهب الحنفي. وجاء البحث في مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة. أرجو من الله عزوجل أن أكون قد وُفِّقتُ في بيان مكانة الإمام الجليل القدوري بين الفقهاء، وقدر مختصره المبارك بين كتب الحنفية، والله الموفق والمعين، وصلى الله وسلم على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد:

في التعريف بالمختصرات والمتون، ونشأتها، ومميزاتها.

تعريف الاختصار لغة:

"اختصر فلان: وضع يده على خصره، واختصر الطريق: سَلَك أقرَبَه، واختصر الشيء والكلام: حذف الفضول منه"(١). وقال الجوهري: "واختصار الطريق: سلوك أقربه، واختصار الكلام: إيجازه"(٢).

التعريف الاصطلاحي:

ورد للاختصار معانٍ كثيرة في اصطلاحات العلماء، وكلها تدور حول: "إيجاز اللفظ مع استيفاء المعنى". قال الكفوي: "الاختصار عرفاً: تقليل المباني مع إبقاء المعاني، أو حذف عَرَض الكلام"(٣).

ووضح ذلك صاحب **المغني** في مقدمة كتابه بقوله: "اختصرت هذا الكتاب" يعني: قرَّبته وقللت ألفاظه وأوجزته. والاختصار: هو تقليل الشيء، وقد يكون اختصار الكتاب بتقليل مسائله، وقد يكون بتقليل ألفاظه مع تأدية المعنى"(٤).

١- أحمد بن حسن الزيات ورفقاؤه، **المعجم الوسيط**، مادة "خصر".

٢- إسماعيل بن حماد الجوهري، **الصحاح**، مادة "خصر".

٣- أيوب بن موسى الكفوي، **الكليات**، تحقيق عدنان درويش وغيره، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤١٩هـ ص ٦٠.

٤- عبد الله بن أحمد بن قدامة، **المغني**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي وغيره، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢، ١٤١٢هـ، ١/ ٧.

وعرّف الدكتور أبو سليمان المختصر الفقهي بتعريف جامع مانع وضّحه بأمثلة: قائلاً "كلمة المختصر شاع استعمالها لكتاب يختصره، وتُستل مادته من كتاب آخر مطول، ولكن لا تعني هذا المعنى دائماً، فقد يطلق على الكتاب مختصراً لا بالمعاني السابقة؛ بل لاشتماله على أهم المعلومات في ذلك الفن بأخصر العبارات وأوجزها، دون أن يكون اختصاراً من كتاب معيَّن، مثل:

- **مختصر القدوري** في فقه الحنفية، تأليف العلامة الفقيه الشيخ أحمد القدوري (ت٤٢٨هـ).
- **مختصر** سيدي خليل بن إسحاق المالكي (ت ٧٦٧هـ) في فقه المالكية.
- **مختصر الخرقي** للخِرَقي (ت ٣٣٤هـ) في فقه الحنابلة.

جميع هذه الكتب الفقهية وغيرها، أطلق عليها هذا العنوان "المختصر" ابتداء بذلك المعنى، وليست في الحقيقة اختصاراً لكتاب معين"[٥].

ظهر مما سبق أن المختصرات أنواع:

النوع الأول منها: أن يكون المختصر ابتداءً، مثل **مختصر أبي شجاع** (ت٥٩٣هـ) عند الشافعية ويسمى **الغاية والتقريب**. و**مختصر القدوري** (ت٤٢٨هـ) عند الحنفية ويسمى **الكتاب** وغيرهما.

والنوع الثاني: أن يكون المختصر تابعاً لكتاب أصل أختصر منه واحتوى مسائله مثل:

- **كنز الدقائق** عند الحنفية، اختصره النسفي (ت٧١٠هـ) من كتابه **الوافي**.
- **زاد المستقنع** عند الحنابلة، اختصره الحجاوي (ت٩٦٨هـ) من كتاب **المقنع** لابن قدامة (٦٢٠هـ).

النوع الثالث: أن يكون المختصر تابعاً لعدة كتب أصول اختصر منها واحتوى مسائلها، فكان جامعاً لخلاصة هذه الأصول، وإن لم يسمها بعض أصحابها مختصراً، مثل:

- **المختار للفتوى** للموصلي (ت ٦٨٣هـ) فقد قال في مقدمته: "فقد رغب إليّ مَن وجب عليّ أن أجمع له مختصراً في الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه وأرضاه، مقتصراً فيه على مذهبه معتمداً على فتواه، فجمعت له هذا المختصر كما طلبه وتوخاه، وسميته: **المختار للفتوى** .."[٦].
- **الهداية شرح بداية المبتدي** للمرغيناني (ت ٥٩٣)هـ.

فيقول مؤلفه بعد انتهائه من شرحه **كفاية المنتهي** وابتدائه لـ: **الهداية**: "... تبينت فيه نبذاً من

٥- عبد الوهاب بن إبراهيم أبو سليمان، **منهج البحث في الفقه**، المكتبة المكية، مكة المكرمة، ودار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ، ص ١٤٤.

٦- عبد الله بن محمود الموصلي، **الاختيار لتعليل المختار**، تحقيق: عبد اللطيف محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٣، ١٤٢٦هـ، ص ٥، ٦، المقدمة.

الإطناب، وخشيت أن يهجر لأجله الكتاب فصرفت العنان والعناية إلى شرح آخر موسوم بـ: **الهداية** أجمع فيه بتوفيق الله تعالى بين عيون الرواية ومتون الدراية، تاركاً للزوائد في كل باب، معرضاً عن هذا النوع من الإسهاب ..."[٧] وغيرها من كتب المذاهب[٨].

تعريف المتن:

بعد ما عرّفت "المختصر" ووضحت أصله وأنواعه واصطلاحاته، لا بد من التعرض لاصطلاح "المتن". فالمصطلحان يتداخلان مرة وينفردان أخرى، ولتكملة الصورة عن المختصر والمتن، ورفع الالتباس عن التداخل بينهما، ولتوضيح ما بينهما من العموم والخصوص، ذكرت مصطلح المتن.

المتن لغة:

كما في **المعجم الوسيط**: "الظهر (يذكر ويؤنث) ومتن الأرض: ما ارتفع وصلب منها"[٩].

وقال الفيروزآبادي: "المتن: النكاح، والحَلِف، والضَّرْب، أو شديده، والذَّهاب في الأرض، والمَدُّ، وما صَلُب من الأرض وارتفع ... والرَّجُل الصُّلْب ... متنا الظهر: مكتنفا الصُّلب، ويؤنث"[١٠].

وفي الاصطلاح:

"متن الكتاب: الأصل الذي يشرح، وتضاف إليه الحواشي"[١١]. وفي اصطلاح المحدثين: "المتن: هو غاية ما ينتهي إليه الإسناد من الكلام"[١٢]. وعرّفه الشيخ بكر أبو زيد بعبارة أشمل فقال: "المتن: هو ما يكتبه مؤلفه ابتداءً، أو استخلاصاً من كتب مَن سبقه، دون الارتباط بشرح كتاب آخر، ثم يلحق المتن الشرحُ وما إليه. فالمتن إذاً يُطلق على (الكتاب) المقابل للشرح"[١٣].

٧- علي بن أبي بكر المرغيناني، **الهداية**، تحقيق: محمد محمد تامر، دار السلام للطباعة والنشر والترجمة، القاهرة، ط ١، ١٤٢٠هـ، ص ١١، مقدمة.

٨- انظر بالتفصيل: عبد الله الشمراني، **المدخل إلى علم المختصرات**، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٢٩هـ، ص ٩٧ وما بعدها، محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، تحقيق: أيمن صالح شعبان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٦هـ، ص ١٥٦.

٩- **المعجم الوسيط**، مادة "متن".

١٠- الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، مادة "متن".

١١- **المعجم الوسيط**، مادة "متن".

١٢- محمد بن سعيد مقديش، **نزهة النظر في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق: محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٨٨م، ص ١٠٦.

١٣- بكر بن عبد الله أبو زيد، **المدخل المفصَّل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل**، دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤١٧هـ ٢/ ٦٧٨.

وعرّفه الشيخ مصطفى الزرقاء مبيناً العلاقة بين المعنى اللغوي والعرفي: "المتن ـ بفتح فسكون ـ أصل معناه في اللغة: ما يكون في جانب صُلب الحيوان من لحم وعَصَبٍ، فللظهر متنان من جانبي العمود الفقري، وقد يطلق المتن في الاستعمال على الظهر كله. وقد سَمَّوا به في الاصطلاح هذه المختصرات العلمية؛ لأنها تتضمن المسائل الأساسية التي يُحمل عليها غيرها، كما أن الظهر أساس للركوب والحمل"(١٤).

فمما سبق من تعريف المتن لغة واصطلاحاً يتبيّن: أن المتن يأتي بمعنى "المختصر"، ولكن هل كل متن مختصر، وهل كل مختصر متن؟ فإن المتن يأتي مقابلاً لـ: "الشرح" فيُقال: هذا متن، وهذا شرح أو شرحه. ومن ثَمَّ فإن "المتن" لا يكون مختصراً مطرداً دائماً، فكل كتاب مشروح يُعَدّ متناً، ولو كان هذا المتن المشروح مطولاً. فتقول **صحيح البخاري** متن، و**فتح الباري** شرح، وهكذا . فكما أن المتن يأتي مقابلاً للمختصر أحياناً، فإنه يأتي مقابلاً للكتاب المشروح صغيراً كان أم كبيراً(١٥).

نشأة المختصرات ومميزاتها:

عُرف المتقدمون من طلبة العلم بالحرص الشديد على طلب العلم، والنهم في التحصيل، وطول السفر وتحمل المشاق في سبيل الحصول على نسخة المؤلف أو الاستماع من المصنف، أو لرواية الحديث بالسند العالي، أو الاستملاء من المحدث أو لمعرفة مسألة فقهية من فقيه معين، وهكذا.

فكتب التراجم مليئة بنماذج مضيئة من حرص الطلب، والرحلة في سبيل ذلك، وبذل الغالي والنفيس في سبيل الوصول إلى الهدف المنشود. فقد كانوا أصحاب همم عالية شامخة كقمم الجبال، تدل عليها تصانيفهم المطولات؛ حيث يقف الواحد منا أمام نتاج قرائحهم في جميع الفنون، بإكبار واحترام، مع أن أكثر تصانيفهم قد اندثرت.

وقد أعقب هذا الرعيل الأول من الطلاب النجباء، والعلماء الفضلاء، والأئمة العظام في شتى فنون العلم، طلاب علم هممهم ضعيفة، وصبرهم في الطلب أقل، بسبب ركونهم إلى الدعة والرفاهية، وميلهم إلى الأغراض الدنيوية، "فصاروا يطلبون المختصرات ولا ينشطون للمطولات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدثرت الكتب ولم تنسخ"(١٦).

١٤- مصطفى أحمد الزرقاء، **المدخل الفقهي العام**، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٨هـ، ١/ ٢١٢.

١٥- انظر: **المدخل إلى علم المختصرات**، ص ٢٨ وما بعدها.

١٦- كما قال الإمام عبد الرحمن بن علي بن الجوزي في **صيد الخاطر**، تحقيق: عامر بن علي ياسين، دار ابن خزيمة، الرياض، ط ٢، ١٤١٩هـ، ص ٧٠٦.

وبظهور هذه العلل المثبطة وغيرها من أمراض المجتمعات العائقة في الاستمرار على مناهج السابقين في طلب العلم، رأى العلماء كتابة المختصرات في شتى فنون العلم عامة، وفي الفقه المذهبي (على القول الواحد المعتمد في المذهب) خاصة لما في ذلك من: ضبط مادة العلم في ذهن الطلبة، واستحضارها دائماً، والوصول إلى معرفة أحكام المسائل بيسر وسهولة.

بالإضافة إلى التشويق إلى الطلب، وتيسر الحفظ وضبطه أيضاً، واستيعاب عامة مسائل الفقه حفظاً وإدراكاً، مما يعين الصغار والكبار على سرعة استحضار الأحكام حين الاستفتاء والسؤال والحاجة إليها.

كما راعى المربون في تصنيف المتون والمختصرات أسلوب الترقي والتدرج في سُلَّم الطلب، ليتلاءم المختصر مع سنّ الطالب العمري والثقافي، ليتدرج في التحصيل العلمي من الأسهل إلى الأصعب، ومن الأصول إلى الفروع، ومن المتون إلى الشروح، وهكذا.

يقول ابن الهمام الحنفي (ت٨٦١هـ) في مقدمة مختصره في الأصول، بعد كتابته بطول وإسهاب: "... فظهر لي بعد قليل أنه سِفر كبير، وعرفت من أهل العصر انصراف هممهم في غير الفقه إلى المختصرات، وإعراضهم عن الكتب المطولات، فعدلت إلى مختصر متضمن، إن شاء الله تعالى، الغرضين ..."(١٧).

وقال الخرقي في مقدمة **مختصره**: "اختصرت هذا الكتاب على مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضي الله عنه ليقرب على متعلمه". وقال ابن قدامة شارحاً وموضحاً قول الخرقي: "فائدة الاختصار: التقريب والتسهيل على من أراد تعلمه وحفظه، فإن الكلام يختصر ليُحفظ، ويُطَوَّل ليُفهم"(١٨).

وقال أبو إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦هـ) في مقدمة **التنبيه**: "هذا كتاب مختصر في أصول مذهب الشافعي، إذا قرأه المبتدي وتصوره، تنبَّه به على أكثر المسائل، وإذا نظر فيه المنتهي تذكر به جميع الحوادث"(١٩).

وأفضل ما ذكر في فضل المختصرات ومحاسنها ومميزاتها، قول الماوردي الشافعي (ت٤٥٠هـ): "المختصر أقرب إلى الحفظ، وأبسط للقارئ، وأحسن موقعاً في النفوس، ولذلك تداولوا إعجاز قوله عزوجل: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾(٢٠) لاختصار لفظه، وإجماع معانيه. وعجبوا من وجيز قوله

١٧- محمد بن عبد الواحد بن الهمام، **التحرير**، مطبوع ضمن شرحه: **التقرير والتحبير**، المطبعة الأميرية، بولاق، ١٣١٦هـ، مصورة: دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤٠٣هـ، ١/ ١١.

١٨- ابن قدامة، **المغني**، ١/ ٨، مقدمة.

١٩- أبو إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، **التنبيه**، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٣هـ، مقدمة.

٢٠- سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

سبحانه وتعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾(٢١). ومن اختصار قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾(٢٢) وقالوا إنها أخصر آية في كتاب الله تعالى. واستحسنوا اختصار قوله عزوجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُ﴾(٢٣). كيف جمع بهذا اللفظ الوجيز بين جميع المطعومات، وجميع الملبوسات! ولفضل الاختصار على الإطالة قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أوتيت جوامع الكلم، واختصرت لي الحكمة اختصاراً"(٢٤). وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: "خير الكلام ما قلّ ودلّ، ولم يَطُل فَيُمَل"(٢٥).

المبحث الأول: القدوري ومكانته العلمية، وتحته مطلبان:

المطلب الأول: ترجمة صاحب المختصر ترجمة موجزة.

المطلب الثاني: مكانته بين الفقهاء الحنفية وثناء الفقهاء عليه.

المطلب الأول: ترجمة الإمام القدوري(٢٦).

اسمه ونسبه: هو أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان.

٢١- سورة الحجر، الآية: ٩٤.

٢٢- سورة هود، الآية: ٤٤.

٢٣- سورة الزخرف، الآية: ٧١.

٢٤- أخرجه البخاري في **صحيحه**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، دمشق، ط ٤، ١٤١٠هـ ٢٨١٥، ومسلم في **صحيحه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ٥٢٣ بلفظ "بعثت". والجزء الثاني أورده السخاوي في **المقاصد الحسنة**، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٥هـ ص٢١٨، وبلفظ "اختصر لي الحديث اختصاراً" أخرجه الدارقطني في **سننه**، عالم الكتب، بيروت، ط ٤، ١٤٠٦هـ ٤/ ١٤٤؛ والبيهقي في **شعب الإيمان**، تحقيق: جماعة بإشراف مختار أحمد الندوي، الدار السلفية، مومباي، ط ١، ١٤٠٦هـ ٤/ ٥٤.

٢٥- علي بن محمد الماوردي، **الحاوي الكبير**، تحقيق علي محمد معوض وغيره، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ، ١/ ١١.

٢٦- انظر ترجمته: أحمد بن محمد ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، تصوير دار الفكر، ١/ ٧٨، قاسم بن قطلوبغا المصري، **تاج التراجم**، تحقيق إبراهيم صالح، دار المأمون للتراث، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ، ص ٩٨، عبد الحي بن محمد عبد الحليم اللكنوي، **الفوائد البهية**، تحقيق محمد بدر الدين النعماني، مكتبة خير كثير، الهند، ص ٣٠؛ حاجي خليفة، **كشف الظنون**، المطبعة الإسلامية، طهران، طبعة عام ١٣٨٧هـ، ١/ ٤٦، ١٥٥، عبد القادر بن محمد القرشي، **الجواهر المضية في طبقات الحنفية**، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢، ١٤١٣هـ، ١/ ٢٤٧ـ ٢٥٠؛ وغيرها من كتب التراجم والتاريخ.

كنيته: أبو الحسين بن أبي بكر.

لقبه ونسبته: اشتهر بين الناس بالقدوري، وصاحب المختصر، والبغدادي. وهذه قامت مقام اللقب. ولقب بالقدوري نسبة إلى القدور ـ جمع قدر ـ. وذهب جمع من المؤرخين إلى القول: بأنه لم يعرف سبب نسبته إلى القدور، وقيل: القدوري نسبة إلى بيع القدور، أو إلى عملها، وقيل: القدور اسم محلة في بغداد يقال لها: قُدور، أو قرية من قرى بغداد يقال لها: ودورة[٢٧] (قدورة). كما عُرِفَ بين علماء المذهب بصاحب المختصر، وهو الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه.

مولده: ولد الإمام القدوري سنة اثنتين وستين وثلاثمائة هجرية باتفاق المترجمين له. ولعل مكان مولده بغداد، إذ غفل المؤرخون للإمام عن ذكر ذلك، ولعله كان سهواً أو استغناء بنسبته إلى بغداد أو قدور.

طلبه العلم ومشايخه:

لم يزودنا التاريخ بمعلومات كافية عن حياة القدوري العلمية، ولا بذكر مشايخه الذين أخذ عنهم منذ بداية طلبه للعلم إلى أن تبوأ المكانة العلمية العالية المرموقة بين علماء وفقهاء عصره، ولم يحدثنا القدوري عن نفسه أيضاً بالتفصيل. وكل ما وصل إلينا هو ذكر بعض من المشاهير الذين أكثر القدوري من الأخذ عنهم، والذين كان لهم الأثر في تكوين شخصيته العلمية والخلقية.

ومن أهم مشايخه:

- الفقيه الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن يحيى بن مهدي الجرجاني، الحنفي، نزيل بغداد، المتوفى سنة ٣٩٨هـ على الأرجح، أحد أعلام الحنفية الكبار[٢٨].
- المحدث الشيخ عبيد الله بن محمد بن أحمد، أبو الحسين الشيباني، المعروف بالحوشبي المتوفى سنة ٣٧٥هـ، وكان ثقة ثبتاً مستوراً أميناً، وثقه المحدثون كالخطيب البغدادي، والبرقاني والتنوخي وغيرهم[٢٩]. روى الحديث عنه الإمام أبو الحسين القدوري[٣٠].

٢٧- انظر بالتفصيل: **تاج التراجم**، ص ٩٩.

٢٨- انظر: إبراهيم بن علي الشيرازي، **طبقات الفقهاء**، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ط ٢، ١٤٠١هـ، ص ١٤٥، **الجواهر المضية**، ١/ ٢٤٨.

٢٩- انظر: أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٢٢هـ ٤/ ٣٧٧، **الجواهر المضية**، ١/ ٢٤٨.

٣٠- انظر: **تاريخ بغداد**، ٤/ ٣٧٧.

بعض تلامذته:

- الفقيه أبو بكر عبد الرحمن بن محمد السرخسي المتوفى ٤٣٩هـ، صنف **تكملة تجريد القدوري، ومختصر المختصرين**(٣١).
- الحافظ أحمد بن علي بن أحمد بن مهدي، أبو بكر الخطيب البغدادي المتوفى ٤٦٣هـ، المؤرخ الكبير، صاحب التصانيف الكثيرة وأحد أعيان الشافعية، المشهود له بالفضل والعلم(٣٢).
- الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الحسين الدامغاني الكبير المتوفى ٤٧٨هـ، أحد أعيان الحنفية ببغداد في زمانه(٣٣). برع في الفقه حتى فاق أقرانه، وانتهت إليه رئاسة مذهب أبي حنيفة في زمانه(٣٤).

مؤلفاته:

تُدرَك وتُعرَف مكانة العالم من خلال آثاره ومؤلفاته، ومؤلفات الإمام القدوري ـ مع قلتها ـ هي الأثر الخالد لهذه الشخصية العلمية التي تشهد برسوخه في الفقه. ومن أهم مصنفاته:

- **التجريد**: وهو كتاب عظيم في فقه الموازنة وخاصة في مسائل الخلاف بين الحنفية والشافعية، قال أبو الوفاء عنه: "**والتجريد** في سبعة أسفار، اشتمل على مسائل الخلاف بين أصحابنا وبين الشافعي، شرع في إملائه سنة خمس وأربعمائة"(٣٥).
- **التقريب**: في مجلد، في مسائل الخلاف بين أبي حنيفة وأصحابه، مجرداً عن الدلائل، ثم صنف التقريب الثاني فذكر المسائل بأدلتها"(٣٦).
- **شرح مختصر الكرخي**: "المختصر المشهور: فنفع الله تعالى به خلقاً لا يحصون"(٣٧)، وهو من أهم وأوسع كتب المؤلف، "وهو كتاب يجمع من فروع الفقه ما لا يجمعه غيره"، كما قال المؤلف رحمه الله تعالى في مقدمة كتابه.

٣١- انظر: **الجواهر المضية**، ٢/ ٣٩٧.

٣٢- انظر: **تاريخ بغداد**، ١٩/ ٦٠.

٣٣- انظر: المصدر السابق، ٣/ ٢٦٩.

٣٤- انظر: المصدر السابق، ٣/ ١٠٩.

٣٥- **الجواهر المضية**، ١/ ٢٤٨، طبع كتاب **التجريد**، الدكتور محمد سراج والدكتور علي جمعة في ثلاثة عشر جزءاً، دار السلام، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٣٦- **تاج التراجم**، ص ٩٩.

٣٧- **الجواهر المضية**، ١/ ٢٤٨. ولا زال **شرح مختصر الكرخي**، مخطوطاً متفرقاً بمكتبات تركيا.

- **جزء في الحديث**: وله "جزء من حديثه" من رواية أبي عبد الله الدامغاني عنه[٣٨].
- **أدب القاضي على مذهب الإمام أبي حنيفة**[٣٩].
- **مختصر القدوري**: وهو هذا الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه، وسيأتي الكلام عنه بالتفصيل.

مناظرات القدوري:

وكانت تعقد مجالس للمناظرة بين العلماء، وبين فقهاء الحنفية والشافعية خاصة، فقد كان لإمامنا القدوري الحظ الأوفر من مجالس المناظرات، وهناك مناظرات عديدة وقعت بين القدوري وبين الإمام أبي الطيب الطبري الشافعي، والإمام أبي حامد الإسفرائيني الشافعي، وهذه الواقعات دلالة جلية على مكانة الإمام القدوري العلمية، ليس بين فقهاء مذهبه فحسب، بل بين سائر فقهاء عصره[٤٠].

وفاته:

توفي رحمه الله تعالى ببغداد، بعد عمر حافل قضاه في طلب العلم وتعليمه ونشره ـ في يوم الأحد، الخامس عشر من رجب، سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، ودفن من يومه في داره بدرب أبي خلف، وزاد ابن خلكان: "ثم نقل إلى تربة في شارع المنصور، ودفن هناك، بجنب أبي بكر الخوارزمي الفقيه الحنفي". وتوفي عن عمر يناهز الستة والستين. رحمه الله عزوجل رحمة واسعة.

المطلب الثاني: مكانته العلمية بين الفقهاء الحنفية:

بلغ الإمام القدوري مكانة بارزة بين فقهاء مذهبه في عصره حتى قال الحافظ الخطيب البغدادي عنه بعد أن عظم قدره وارتفع جاهه عند الحنفية: "انتهت إليه بالعراق رئاسة مذهب أبي حنيفة"[٤١]. وقال أبو إسحاق الشيرازي: "وكان أبو الحسين البغدادي المعروف بالقدوري، إمام مذهب أبي حنيفة في عصرنا"[٤٢]. وقال ابن كثير: "كان إماماً بارعاً، وثبتاً مناظراً... وهو صاحب المختصر الذي يُحفظ"[٤٣].

٣٨- انظر: المصدر السابق، ١/ ٢٤٩.

٣٩- كما ذكره إسماعيل باشا بن محمد أمين البغدادي في **هدية العارفين**، المطبعة الإسلامية، طهران، تصوير: دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ، ٥/ ٧٤.

٤٠- انظر: **وفيات الأعيان**، ١/ ٧٣، و**الفوائد البهية**، ص ٣٠.

٤١- **تاريخ بغداد**، ٤/ ٣٧٧.

٤٢- **طبقات الفقهاء**، ص ١٢٤.

٤٣- إسماعيل بن عمر بن كثير، **البداية والنهاية**، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٤١٧هـ، ١٢/ ٢٦.

كما جعله فضلاء الحنفية الذين قسموا طبقات الفقهاء الحنفية من طبقة أصحاب الترجيح: "الطبقة الخامسة: طبقة أصحاب الترجيح من المقلدين كأبي الحسين القدوري، وصاحب **الهداية** وأمثالهما، وشأنهم تفضيل بعض الروايات على بعض آخر بقولهم: هذا أولى وهذا أصح رواية، وهذا أرفق للناس"(٤٤).

وهذا بحسب تقسيم ابن كمال باشا، حيث قسمهم إلى سبع طبقات، فأذكر بقية الطبقات كما ذُكِر، حيث تداولته الفقهاء بعده بالقبول والرفض، والأخذ والردّ:

الطبقة الأولى: طبقة المجتهدين في الشرع، كالأئمة الأربعة أو من سلك مسلكهم في تأسيس قواعد الأصول واستنباط الأحكام والفروع من الأدلة الأربعة من غير تقليد لأحد في الفروع ولا في الأصول، وهي الطبقة العليا من طبقة المجتهدين.

الطبقة الثانية: طبقة المجتهدين في المذهب، كتلاميذ أصحاب الطبقة الأولى: كأبي يوسف ومحمد لأبي حنيفة، وكالمزني والبويطي للشافعي، فمسلكهم استخراج الأحكام من أدلتها الشرعية على مقتضى القواعد التي قررها مشايخهم، وإن خالفوهم في بعض أحكام الفروع، فلا يخرجون من اتباع مشايخهم في قواعد الأصول، وهي الطبقة الوسطى من طبقات الاجتهاد.

الطبقة الثالثة: طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب، وهم: كالخصاف، والطحاوي، وأبي الحسن الكرخي، وشمس الأئمة الحلواني، وشمس الأئمة السرخسي، وفخر الإسلام البزدوي، وفخر الدين قاضيخان، وأمثالهم من أئمة الحنفية، ومن في طبقتهم من أئمة الشافعية والمالكية، وغيرهم من الأئمة المعارضين في المذهب، فإنهم لا يقدرون على مخالفة شيوخهم لا في الأصول ولا في الفروع، لكنهم يستنبطون الأحكام في المسائل التي لا نص فيها عنهم على حسب أصولهم ومقتضى قواعدهم، هي الطبقة السفلى من طبقات الاجتهاد.

الطبقة الرابعة: طبقة أصحاب التخريج من المقلدين كالرازي وأضرابه؛ فإنهم لا يقدرون على الاجتهاد أصلاً، لكنهم لإحاطتهم بالأصول وضبطهم للمآخذ يقدرون على تفصيل قول مجمل ذي وجهين، أو حكم مبهَمٍ محتمل لأمرين منقول عن صاحب المذهب أو عن أحد من أصحابه المجاهدين برأيهم ونظرهم في الأصول والمقايسة على أمثاله ونظرائه من الفروع، كما وقع في بعض المواضع من **الهداية** من قوله: "كذا في تخريج الكرخي وتخريج الرازي" من هذا القبيل .

٤٤- تقي الدين بن عبد القادر التميمي، **الطبقات السنية**، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار الرفاعي، الرياض، ط ١، ١٤٠٣هـ، ص ٤١، ٤٢.

الطبقة الخامسة: طبقة أصحاب الترجيح من المقلدين كأبي الحسين القدوري، وصاحب **الهداية** وأمثالهما، وشأنهم تفضيل بعض الروايات على بعض آخر بقولهم: هذا أولى، وهذا أصح، وهذا أرفق للناس.

الطبقة السادسة: طبقة المقلدين القادرين على التمييز بين الأقوى، والقويِّ والضعيف، وظاهر الرواية والرواية النادرة، كأصحاب المتون المعتبرة من المتأخرين، مثل صاحب **الكنز**، وصاحب **المختار**، وصاحب **الوقاية**، وصاحب **المجمع**، وشأنهم أنهم لا ينقلون في كتبهم الأقوال المردودة، والروايات الضعيفة.

الطبقة السابعة: طبقة المقلدين الذين لا يقدرون على التمييز المذكور، ولا يفرقون بين الغث والسمين، ولا يميزون الشمال عن اليمين، بل يجمعون ما يجدون كحاطب الليل، فالويل لهم ولمن قلدهم كل الويل(٤٥).

قد اختلفت أقوال فقهاء الحنفية حول هذا التقسيم: فمنهم من اعتمده وأيده مثل طاش كبري زاده (ت ٩٦٨هـ) في **طبقات الفقهاء**(٤٦)، والتميمي (ت ١٠١٠هـ) في **الطبقات السنية** ووصفه "بأنه تقسيم حسن جداً"(٤٧)، وابن عابدين (ت ١٢٥٢هـ) في **رد المحتار**(٤٨) وغيرهم.

وانتقد هذا التقسيم مجموعة أخرى من الحنفية، منهم: شهاب الدين المرجاني (ت ١٣٠٦هـ) فقال معلقاً على قول التميمي (هو تقسيم حسن جداً): "أقول: بل هو بعيد عن الصحة بمراحل، فضلاً عن حسنه جداً، فإنه تحكمات باردة وخيالات فارغة ... ولا سلف له في ذلك المدعى، ولا سبيل له إلى تلك الدعوى، وإن تابعه من جاء من عقبه من غير دليل يتمسك به وحجة تلجيه، ومهما ساعدناهم فيكون الفقهاء والمتفقة على هذه المراتب السبع، وهو غير مسلم لهم، فلا يتخلصون من فحش الغلط والوقوع في الخطأ المفرط في تعيين رجال الطبقات وترتيبهم على هذه الدرجات"(٤٩).

وتبع المرجاني على تضعيف وتوهين تقسيم التميمي عبدُ الحي اللكنوي (١٣٠٤هـ) في بعض مؤلفاته(٥٠)، ومحمد بخيت المطيعي (١٣٥٤هـ) في **إرشاد أهل الملة إلى إثبات الأهلة**(٥١)، ومحمد زاهد

٤٥- المصدر السابق، ص ٤١، ٤٢؛ **حاشية ابن عابدين**، دار الثقافة والتراث، ١/ ٢٥٣ وما بعدها.

٤٦- انظر: أبو الخير أحمد بن مصطفى طاش كبري زاده، **طبقات الفقهاء**، مطبعة نينوى، الموصل، ط ١، ١٩٥٤م، ص ٧-١١.

٤٧- **الطبقات السنية**، ١/ ٣٢، ٣٤

٤٨- **حاشية ابن عابدين**، ١/ ٢٥٣.

٤٩- هارون بن بهاء الدين المرجاني، **ناظورة الحق**، مطبوع في قزان (البلغار القديم) سنة ١٢٨٧هـ، ص ٥٨.

٥٠- انظر: **الفوائد البهية**، ص ٧، أبو الحسنات عبد الحي بن محمد عبد الحليم اللكنوي، **عمدة الرعاية**، مطبوعة بهامش **شرح الوقاية** للمحبوبي، طبعة المطبع اليوسفي، الهند، ١٣٢٦هـ (نسخة مصورة)، ص ٨، ٩.

٥١- انظر: مفتي محمد بخيت المطيعي، **إرشاد أهل الملة إلى إثبات الأهلة**، مطبعة كردستان العلمية، مصر، ١٣٢٩هـ ص ٣٦٥ وما بعدها.

الكوثري (١٣٧١هـ) في **حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي**[٥٢]، وكلهم انتقدوا هذا المسلك في تقسيم طبقات فقهاء الحنفية، واعتمدوا في الردّ على قول المرجاني، كما سبق.

كما انتقد هذا التقسيم الشيخ محمد أبو زهرة (١٣٩٤هـ) وناقش كل طبقة على حدة، ثم رجّح أن تكون طبقات الفقهاء على خمس طبقات:

- وقال عن الطبقة الخامسة (طبقة إمامنا القدوري): "إن التفرقة بين هذه الطبقة وسابقتها ليست واضحة، وإنه لكي تكون الأقسام متميزة غير متداخلة يجب حذف طبقة من هذه الطبقات الثلاث هي: الثالثة، والرابعة، والخامسة، واعتبارهما طبقتين اثنتين"[٥٣].

- فجعل الطبقة الأولى: هم المجتهدون المطلقون: هم أبو حنيفة وأصحابه.

الطبقة الثانية: طبقة المخرجين الذين يستخرجون أحكاماً لمسائل لم تؤثر لها أحكام من أصحاب المذهب الأولين بالبناء على قواعد المذهب.

الطبقة الثالثة: "طبقة المرجحين الذين يرجحون بين الروايات المختلفة، والأقوال المختلفة، فيبينون أقوى الروايات، ويميزون أصحّ الأقوال وأوفقها للقياس أو أرفقها بالناس".

واعتبر أبو زهرة الطبقات الثلاث الأولى من المجتهدين، وقال: "الطبقات الثلاث الأولى من المجتهدين، سواء كان اجتهادهم مطلقاً، أم اجتهادهم في المذهب".

وقال معللاً سبب ذلك: "فلما غلق باب الاجتهاد وارتضى فقهاء المذهب الحنفي ذلك التعليق، كما ارتضاه غيرهم من فقهاء المذاهب الأربعة لم يعد لأحد حق الترجيح، بل ليس للمفتي أو القاضي إلا تعرف الراجح والبحث عنه"[٥٤].

- كما انتقد المرجاني ومن تبعه كل طبقة من طبقات ابن كمال باشا، فقالوا عن الطبقة الثانية:

اعتبر ابن كمال باشا أصحاب الإمام أبي حنيفة، أمثال أبي يوسف ومحمد رحمهم الله تعالى من مقلديه في قواعد الأصول، وإن خالفوه في بعض أحكام الفروع. فقالوا: إن كان المراد بقواعد الأصول: أدلة الشرع المعروفة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، فهي مستند كل مجتهد، ومرجع كل إمام، ولا يعتبر أحد مقلداً لغيره في الاعتماد عليها والاستناد إليها.

٥٢- انظر: محمد زاهد الكوثري، **حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي**، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ص ٢٩ وما بعدها.

٥٣- محمد بن أحمد أبو زهرة، **أبو حنيفة: حياته وعصره ـ آراؤه وفقهه**، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثانية، ص ٤٤٧.

٥٤- المصدر السابق، ص ٤٤٩.

وهكذا فَنَّدوا كل الاحتمالات الواردة، ثم قالوا: إن هؤلاء الأئمة: أبا يوسف ومحمداً، وأمثالهما من أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمهم الله تعالى، قد بلغوا درجة الاجتهاد المطلق، شأنهم في ذلك شأن الأئمة مالك والشافعي وأحمد، وغيرهم من الأئمة المجتهدين رحمه الله تعالى، ومخالفتهم للإمام أبي حنيفة في الأصول غير قليلة، فضلاً عن أحكام الفروع وجزئيات مسائل الفقه(٥٥).

وتعقب هذا الفريق تقسيم ابن كمال باشا طبقة طبقة، وفندوا جميع علل ابن كمال باشا في مسلكه، وأترك ذكرها خشية الإطالة. وقالوا عن الطبقة الخامسة ـ كما نقل النقيب ـ بأن كمال باشا جعل أبا الحسين القدوري رحمه الله صاحب المختصر المعروف، والمرغيناني رحمه الله صاحب **الهداية** من الطبقة الخامسة (أصحاب الترجيح من المقلّدين)، بينما وضع قاضيخان رحمه الله في الطبقة الثالثة (المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب). وقد جانَبَ رحمه الله في ذلك الصواب، فإن القدوري المتوفى سنة ٤٢٨هـ أقدم زماناً من قاضيخان المتوفى سنة ٥٩٢هـ ، وأعلى منه كعباً، وأطول باعاً في العلم(٥٦)، وقد "كان ممن أنجب في الفقه لذكائه، وانتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة، وعظم عندهم قدره وارتفع جاهه ... صنّف من الكتب **المختصر** المشهور، فنفع الله به خلقاً لا يحصون"(٥٧)، وقد كتب الله لمختصره هذا من الشهرة والقبول ما لا يخفى على طلبة العلم. كما أن صاحب **الهداية** المتوفى سنة ٥٩٣هـ، المعاصر لقاضيخان أيضاً من جهابذة فقهاء المذهب الحنفي، أقرّ له أهل عصره أمثال زين الدين العتابي وقاضيخان بالفضل والتقدّم، وقد فاق أقرانه، بل شيوخه، وأذعن له الجميع في حياته، ولا سيما بعد تصنيفه **الهداية** و**كفاية المنتهي**. فكيف ينزل شأنه وشأن القدوري عن الإمام قاضيخان بمراتب؟! فيعدّان من المقلّدين، ويعدّ هو من المجتهدين، مع أنهما أحق منه بالاجتهاد، وأثبت في أسبابه، وألزم لأبوابه(٥٨).

٥٥- انظر: **ناظورة الحق**، ص ٥٨، ٥٩؛ **عمدة الرعاية**، ص ٨، شاه ولي الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، **الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف**، تحقيق عبد الفتاح أبي غدة، دار النفائس، بيروت، ط ٣، ١٤٠٦هـ، ص ٤٠. انظر بالتفصيل: **المذهب الحنفي**، لأحمد النقيب ٢/ ١٦٣ وما بعدها.

٥٦- انظر: **ناظورة الحق**، ص ٦٣، **عمدة الرعاية**، ص ٩، مفتي محمد بن بخيت المطيعي، **إرشاد أهل الملة**، مطبعة كردستان العلمية، مصر، طبعة عام ١٣٢٩هـ، ص ٣٧٦.

٥٧- **الجواهر المضية**،١/ ٢٤٨.

٥٨- انظر: عبد الحي بن عبد الحليم اللكنوي، **التعليقات السنية**، دار الأرقم، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٤١، **عمدة الرعاية**، ص ٩، **ناظورة الحق**، ص ٦٣، **إرشاد أهل الملّة**، ص ٣٧٦، ٣٧٧، أحمد بن محمد النقيب، **المذهب الحنفي**، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١، ١٤٢٢هـ، ص ١٨١، ١٨٢.

وهناك تفسير آخر لهذا التقسيم وهو ما يراه المفتي محمد تقي العثماني (معاصر)[٥٩]، وهو: أن مراتب الطبقات، التي سبق ذكرها في هذا التقسيم، أقسام وظائف الفقهاء، لا الفقهاء أنفسهم، وهي بالتالي أنواع ومراتب تقبل التداخل، ولا تباين بينها، ولذلك يمكن أن يتصف فقيه واحد بأكثر منها، كأن يكون من أصحاب التخريج وأصحاب الترجيح معاً مثلاً؛ لقيامه بكل من التخريج والترجيح، وعليه فلا حرج في ذكر بعض الفقهاء في طبقة دون أخرى؛ لجواز أن يكون من هذه وتلك بجهتين مختلفتين، ونظير ذلك وصف الإمام الطحاوي رحمه الله مثلاً بالفقيه، فهذا لا يعني أنه ليس محدّثاً، وقس على ذلك[٦٠].

وهذا التوجيه له مسوغ مقبول من جانب، ويشهد له تقسيم ابن كمال حين ذكر الكرخي في الطبقة الثالثة ثم كرّر ذكره في آخر الطبقة الرابعة، إلا أن قول ابن كمال في الطبقة السادسة: "وشأنهم أن لا ينقلوا في كتبهم الأقوال المردودة والروايات الضعيفة" يلغي الاحتمال ويؤكد أن هؤلاء الفقهاء أهل تلك الطبقة عنده دون غيرها من الطبقات التي فوقها. وهناك تقسيمات أخر لطبقات الفقهاء مثل تقسيم الدهلوي إلى ثلاث طبقات في **الإنصاف**، ولكنها عامة، ومن ثمَّ لم يأبه بها الفقهاء كثيراً[٦١].

ومن خلال هذا العرض حول تقسيم طبقات الفقهاء لابن كمال باشا، ثم مناقشته بل وتفنيده من قبل معارضيه يظهر: أن إمامنا القدوري ـ بما له من باع طويل، وكعب عالٍ في الأصول والفروع، يستحق أن يتبوأ طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب.

المبحث الثاني: منهج القدوري في مختصره ومقارنته ببعض المختصرات. وتحته ثلاث مطالب:

المطلب الأول: الكتب (المتون والمختصرات) المعتمدة في المذهب الحنفي.

المطلب الثاني: مكانة القدوري في المذهب وثناء واهتمام العلماء به وعناية الفقهاء بالمختصر المبارك.

المطلب الثالث: منهج القدوري في مختصره ومقارنته ببعض المختصرات.

٥٩- هو محمد تقي بن محمد شفيع بن محمد ياسين العثماني، من كبار علماء الحنفية في العصر الحاضر، ويعمل الآن مفتياً ومدرساً بجامعة دار العلوم في كراتشي ونائباً لرئيسها، إلى جانب العضوية في مجمع الفقه الإسلامي بجدة، والمجلس الأعلى للقضاء في باكستان، وعدد من الهيئات في الداخل والخارج. انظر: محمد تقي عثماني، **السيرة الذاتية**، جامعة دار العلوم، كراتشي، ص ١-٣، إبراهيم السامرائي، **علماء العرب في شبه القارة الهندية**، وزارة الأوقاف العراقية، ١٩٨٦م، ص ٨٤٦.

٦٠- انظر: محمد تقي العثماني، **أصول الإفتاء**، جامعة دار العلوم، كراتشي، ص ٢٤، ٢٥.

٦١- انظر: **الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف**، ص ٨٠، ٨١، **المذهب الحنفي**، ص ١٨٧ وما بعدها.

المطلب الأول: الكتب (المتون والمختصرات) المعتمدة في المذهب:

إن عمدة المذهب الحنفي في نقل المذهب هي الكتب المعتمدة التالية: كتب ظاهر الرواية: الكتب الستة التي ألفها الإمام محمد بن الحسن الشيباني ت ١٩٠هـ، ويعنى بكتب محمد الستة: **"المبسوط، والزيادات، والجامع الصغير، والسِّير الصغير، والجامع الكبير، والسِّير الكبير**، وإنما سميت بظاهر الرواية؛ لأنها رُويت عن محمد بروايات الثقات، فهي ثابتة عنه، إما متواترة أو مشهورة عنه"(٦٢). وهذه الكتب هي بمثابة أصول المذهب، وجمعت هذه الكتب في كتاب **الكافي** للحاكم الشهيد (ت ٣٣٤هـ)؛ حيث جمع فيه مسائل كتب محمد بن الحسن ظاهر الرواية مع إسقاط المتكرر. ومن ثمَّ لقي **الكافي** الكثير من التقدير والاعتماد تبعاً لأصوله، ومن شروحه التي نالت الثقة والاعتماد كتاب **المبسوط** للإمام أبي بكر محمد بن أحمد السرخسي ت ٤٨٣هـ، المشهور والمتداول إلى هذا الزمان. إذ "لا يعمل بما يخالفه ولا يركن إلا إليه، ولا يفتى ولا يعول إلا عليه"(٦٣).

وفي هذا القرن (الرابع الهجري) ظهرت عدة مختصرات بعد **الكافي** للحاكم، منها: **مختصر الطحاوي** لأحمد بن سلامة أبي جعفر الطحاوي ٣٢١هـ صاحب **العقيدة** الشهيرة. قال محققه: "إنه أول المختصرات في مذهبنا، وأبدعها وأحسنها تهذيباً، وأصحها رواية عن أصحابنا، وأقواها دراية، وأرجحها فتوى ..."(٦٤). **ومختصر الكرخي**: أبي الحسن عبيد الله بن الحسين الكرخي ٣٤٠هـ. وقد قال عنه القدوري في مقدمة شرحه لهذا المختصر "... حال مختصر الشيخ أي الحسن الكرخي رحمة الله عليه، والحاجة إلى شرحه، وهو كتاب يجمع من فروع الفقه ما لا يجمعه غيره، وقد كان أبو علي الشاشي رحمه الله يقول: "من حفظ هذا الكتاب فهو أحفظ أصحابنا، وهو كتاب مختلف الترتيب ..."(٦٥).

٦٢- **حاشية ابن عابدين**، ١/ ٢٢٦.

٦٣- محمد إبراهيم بن أحمد علي، **المذهب عند الحنفية**، جامعة الملك عبد العزيز، ١٤١١هـ، ص ٩٢.

٦٤- أحمد بن محمد الطحاوي، **مختصر الطحاوي**، تحقيق أبي الوفاء الأفغاني، مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٧٠هـ، ص ٤، وشرحه الإسبيجابي، والجصاص، وقد طبع **شرح الجصاص** بتحقيق سائد بكداش ورفقائه في ثمانية أجزاء، بدار البشائر الإسلامية ببيروت.

٦٥- لازال مخطوطاً، حيث شرحه القدوري في مجلدات كثيرة، وقال عن هذا الشرح والشارح صاحب **غاية البيان** شارح **الهداية**: " والشيخ أبو الحسين القدوري رحمه الله بحر زخار في الفقه، وغيث مدرار في الحديث، وناهيك من الدليل على غزارة علمه شرحه لمختصر الكرخي رحمه الله تعالى، فإذا طالعته عرفت أن محله في الفقه .... لا تناله يد كل أحد ...". محمود بن أحمد العيني، **البناية**، طبعة باكستان، ٥/ ١٢٦.

وفي القرن الخامس: ألف القدوري **مختصره** المشهور، والذي نافس كتب محمد بن الحسن، **والكافي**، و**مختصر الطحاوي**، و**مختصر الكرخي** منافسة كبيرة في اهتمام العلماء به حفظاً وتدريساً وشرحاً، وخاصة التزامه بذكر ما عليه الاعتماد في المذهب، حتى نسي الناس سائر المختصرات، وسيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل. وقال اللكنوي حين ذكر المختصرات المعتمدة في المذهب (عن هذه المختصرات): "ألفها جمع من الأئمة وكبار الفقهاء المعروفين بالعلم والزهد والفقه، والثقة في الرواية، كأبي جعفر الطحاوي والكرخي والحاكم الشهيد والقدوري ..."(٦٦).

وفي القرن السابع: وهو عصر الاهتمام بتدوين العلوم في المتون بشتى الفنون، اهتم فقهاء هذا القرن بتأليف المتون المعتمدة في المذهب الحنفي. وكتب المتون المعتمدة: هي المختصرات التي ألفها الحذاق من علماء المذهب الكبار، المشتهرين بالتمحيص والتدقيق .

وما صححته هذه المتون هو قمة الآراء المعتمدة الراجحة عندهم. قال العلامة ابن عابدين: "إن المتون موضوعة لنقل ما هو المذهب فلا يعدل عما فيها"، كما "أن ما في المتون مقدم على ما في الشروح، وما في الشروح مقدم على ما في الفتاوى"(٦٧). وحصل هذا الاعتماد والتعويل على المتون المعتمدة، إذ كان "مصنفوها يميزون بين الراجح والمرجوح والمقبول والمردود، والقوي والضعيف، فلا يوردون في متونهم إلا الراجح المقبول القوي"(٦٨).

ومن ثم اهتم فقهاء الحنفية قديماً وحديثاً بتلقين النشء وتحفيظهم تلك المتون التي نالت من الثقة والتقدير ما نالت، وقد ذكر اللكنوي: أن اعتماد المتأخرين قد كثر على: **الوقاية**(٦٩)، و**الكنز**(٧٠)، و**المختار**(٧١)، و**مختصر القدوري**، وذلك لما علموا من جلالة مؤلفيها، والتزامهم إيراد مسائل معتمد عليها وأشهرها ذكراً وأقواها اعتماداً: **الوقاية**، و**الكنز**، و**مختصر القدوري**، وهي المراد بقولهم: المتون الثلاثة، وإذا

٦٦- اللكنوي: **عمدة الرعاية**، ص ١٠.

٦٧- **حاشية ابن عابدين**، ١/ ٢٣٥.

٦٨- اللكنوي، **الفوائد البهية**، ص ١٠٧.

٦٩- **وقاية الرواية في مسائل الهداية**؛ لتاج الشريعة، محمود بن أحمد، المحبوبي رحمه الله (ت ٦٧٣هـ).

٧٠- **كنز الدقائق** لأبي البركات، حافظ الدين، عبد الله بن أحمد، النّسفي، الحنفي رحمه الله، صاحب **التفسير**، و**المنار في الأصول**.

٧١- **المختار للفتوى**، لأبي الفضل مجد الدين عبد الله بن محمود، الموصلي رحمه الله ت ٦٨٣هـ.

أطلقوا المتون الأربعة أرادوا: هذه الثلاثة والمختار، أو مجمع البحرين[٧٢]، وقد ذكر العلامة ابن عابدين أهم المتون المعتمدة في المذهب فقال: "المتون المعتبرة: كالبداية، ومختصر القدوري، والمختار، والنقاية، والوقاية، والكنز، والملتقى، فإنها الموضوعة لنقل المذهب"[٧٣]. إلا أن بعض هذه المتون لقيت من القبول والثقة والاعتماد أكثر مما لقيه البعض الآخر تبعاً لاختلاف العصور والأقطار.

وقالوا: "العبرة بما فيها عند تعارض ما فيها وما في غيرها، لما عرفوا من جلالة قدر مؤلفيها، والتزامهم إيراد مسائل ظاهر الرواية، والمسائل التي اعتمد عليها المشايخ"[٧٤] إذ القاعدة المعروفة لدى فقهاء الأحناف في ترجيح الأقوال المعتبرة والمعتمدة في المذهب، وتقديم بعض الكتب على البعض الآخر عند التعارض، أنه: "إذا تعارض ما في المتون وما في غيرها من الشروح والفتاوى، فالعبرة لما في المتون، ثم للشروح المعتبرة، ثم للفتاوى، إلا إذا وجد التصحيح ونحو ذلك في ما من الشروح والفتاوى ولم يوجد ذلك في المتون، فحينئذٍ يقدم ما في الطبقة الأدنى على ما في الطبقة الأعلى".

ووضح هذه القاعدة وبيّنها ابن عابدين في **ردّ المحتار** بقوله: "صرحوا أن ما في المتون مقدم على ما في الشروح، وما في الشروح مقدم على ما في الفتاوى، لكن هذا عند التصريح بتصحيح كل من القولين، أو عدم التصريح أصلاً، أما لو ذكرت مسألة في المتون ولم يصرحوا بتصحيحها، بل صرحوا بتصحيح مقابلها، فقد أفاد العلامة قاسم ترجيح الثاني؛ لأنه تصحيح صريح، وما في المتون تصريح التزامي، والتصحيح الصريح مقدم على التصحيح الالتزامي، أي: التزام المتون ذكر ما هو الصحيح في المذهب"[٧٥].

المطلب الثاني: مكانة مختصر القدوري في المذهب وعناية الفقهاء به:

من أهم المتون الأربعة: **مختصر القدوري** كما مر، وقد ذاع صيت هذا المختصر في الآفاق، وعرف قبوله لدى فقهاء الحنفية، وتقديمه على سائر الكتب المعتمدة في المذهب، حتى إذا أطلق عند الحنفية اسم "الكتاب" فإنه لا ينصرف إلا إليه، ووصفه الآخرون بالمشهور والمبارك، كل ذلك لجلالة قدره، وعلو شأنه وانتفاع الخلق به، والثقة بمؤلفه. وقد كتب الله عزوجل لهذا المختصر من القبول أمراً عظيماً حتى يكاد لا يلتفت إلى سواه من الكتب، إلا إذا نسب إليه باعتبار التكملة، أو توضيح المشكلات منه، كما يقول

٧٢- **مجمع البحرين وملتقى النيرين**، لمظفر الدين أحمد بن علي السّاعاتي رحمه الله ت ٦٩٤هـ.

٧٣- محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز، **شرح عقود رسم المفتي**، مكتبة مير محمد، كراتشي، باكستان، الطبعة الثانية، ص٣٦، ٣٧.

٧٤- أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، **الجامع الصغير**، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٦هـ، ص ٢٣.

٧٥- **حاشية ابن عابدين**، ١/ ٢٣٥.

العلامة علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي ٥٣٩هـ في مفتتح كتابه **تحفة الفقهاء**: "اعلم أن المختصر المنسوب إلى الشيخ أبي الحسين القدوري رحمه الله تعالى، جامع جملاً من الفقه مستعملة؛ بحيث لا تراها مدى الدهر مهملة، يهدي بها الرائض في أكثر الحوادث والنوازل، ويرتقي بها المرتاض إلى أعلى المراقي والمنازل، ولما جمعت رغبة الفقهاء إلى هذا الكتاب، طلب مني بعضهم من الإخوان والأصحاب أن أذكر فيه بعض ما ترك المصنف من أقسام المسائل، وأوضح المشكلات منه بقويٍّ من الدلائل؛ ليكون ذريعة إلى تضعيف الفائدة ..."(٧٦).

وقال الإمام أبو الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني ٥٩٣هـ في مقدمة كتابه **بداية المبتدي** الذي شرحه في **الهداية**: "وكان يخطر ببالي عند ابتداء حالي أن يكون كتاب في الفقه، فيه من كل نوع، صغير الحجم كبير الرسم، وحيث وقع الاتفاق بتطواف الطرق، وجدت المختصر المنسوب إلى القدوري أجمل كتاب في أحسن إيجاز وإعجاب، ورأيت كبراء الدهر يرغبون الصغير والكبير في حفظه الجامع، فهممت أن أجمع بينهما، ولا أتجاوز فيه عنهما إلا ما دعت الضرورة إليه، وسميته **بداية المبتدئ**"(٧٧).

وقال الإمام حسام الدين الرازي علي بن أحمد ٥٩٨هـ في مقدمة كتابه **تكملة القدوري**: "أما بعد: فإن على اللاحق إذا عجز عن إدراك شأن السابق، أن يشق غُباره، أو يرفق بالعين آثاره، والشيخ الإمام أبو الحسين البغدادي القدوري رحمة الله عليه ألّف مختصراً برّز في تصنيفه، وجوّد في ترتيبه وترصيفه، وأغنى به مع وجازة لفظه، وجزالة المعنى مع كثرة المسائل والإيماء إلى الدلائل؛ حيث لا غنية للمبتدي عن دراسته وقراءته، ولا مندوحة للمنتهي عن مراجعته ومطالعته، فمن طمع أن يأتي بمثله كان أطمع من أشعب، وأعجز من ثعلب"(٧٨).

وقال العلامة أبو عبد الرحمن عمر بن دانشمند ٨٠٠هـ تقريباً في مقدمة **شرحه على القدوري**: "إن كتاب القدوري قد تباهج به الطالبون، وتفاخر به الراغبون، حتى صار عمدة بينهم، ومفخرة في مجالسهم، فلم يزالوا مشتغلين به في كل زمان، ويتدراسونه في كل مكان؛ وذلك لكونه أجمل كتاب في الإيجاز وأشمله على مختار الفتوى ..."(٧٩).

٧٦- علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي، **تحفة الفقهاء**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ، ص ١، ٢.

٧٧- من مقدمة **مختصر القدوري**، مكتبة البشرى، كراتشي، باكستان، ص ٥.

٧٨- عبد الغني بن طالب الميداني، **اللباب في شرح الكتاب**، تحقيق سائد بكداش، دار البشائر الإسلامية، ١٤٣١هـ.

٧٩- أبو عبد الرحمن عمر بن دانشمند، **شرح مختصر القدوري**، نسخة من المخطوط بمكتبة حفيد أفندي، اسطنبول، برقم: ٧٦، مقدمة.

وقال الميداني ١٢٩٨هـ في مقدمة كتاب **اللباب**: "... وهكذا اتفقت كلمة علماء المذهب وغيرهم على أن **مختصر القدوري** كتاب مبارك، وأنه قد شاعت بركته حتى صارت كالعلم الضروي؛ ولذا عكفت الطلبة على تفهمه وتفهيمه، وازدحموا على تعلمه وتعليمه، وكنت ممن عكف عليه الأيام الكثيرة ..."(٨٠).

وقال طاش كبري زاده ١٠٣٠هـ: "اعلم أن هذا المختصر مما تبرّك به العلماء، حتى جربوا قراءته أوقات الشدائد وأيام الطاعون"(٨١). ويقول عنه حاجي خليفة: "وهو متن متين معتبر، متداول بين الأئمة الأعيان وشهرته تغني عن البيان"(٨٢). وأثنى عليه الشيخ عبد الحميد اللكنوي ١٣٥٣هـ بقوله: "كأنه بحر زاخر، وغيث ماطر، جامع صغير، ونافع كبير، أحسن متون الفقه وأفضلها وأتمها فائدة وأكملها، طارت عليه رياح القبول، وصار متداولاً بين العلماء الفحول؛ حتى اشتهر في الأمصار والأعصار كالشمس على رابعة النهار"(٨٣).

وقد رأينا من ثناء العلماء عامة وفقهاء الحنفية خاصة على هذا الكتاب، مما لم نر في كتاب آخر، ولم نر أيضاً كتاباً بلغ من التقدير هذا الشأن، مثل ما بلغ المختصر المبارك، وإنما حصل هذه الثقة والقبول لمكانة المؤلف رحمه الله تعالى بين طبقات فقهاء الحنفية، وخاصة بين أصحاب المتون المذكورة فقد تبوأ الطبقة الخامسة في طبقات ابن كمال باشا، ولم يرض المحققون من الحنفية إلا استحقاقه بأن يكون من أصحاب التخريج من طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب. كما وضحت ذلك آنفاً بالتفصيل، بينما سائر أصحاب المتون الأخرى من الطبقة السادسة أي طبقة المقلدين.

عناية فقهاء الحنفية بالمختصر المبارك:

ما كان ليبلغ الكتاب هذا المبلغ من الثناء والتقدير الجليل لدى الفقهاء، لولا سهولة عبارة **مختصر القدوري**، ومكانة مؤلفه، والتزامه بذكر ما عليه الاعتماد في المذهب؛ حتى توارث فقهاء الأحناف الاهتمام بهذا المختصر اهتماماً بالغاً لم يظهر في أيّ كتاب من الكتب الفقهية في المذهب، وبرز ذلك الاهتمام: بإقرائه وتحفيظه للصغار، ووجوده في أغلب مكتبات ومدارس العالم، وبما قام الفقهاء اللاحقون للمؤلف

٨٠- **اللباب بشرح الكتاب**، مقدمة.

٨١- أحمد بن مصطفى المعروف بطاش كبري زاده، **مفتاح السعادة**، تحقيق: كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ٢/ ٢٥٤.

٨٢- انظر: **كشف الظنون**، ٢/ ١٦٣١.

٨٣- عبد الحميد بن عبد الحليم اللكنوي، **الحل الضروري لمختصر القدوري**، مطبوع بهامش **مختصر القدوري**، نشر نور محمد، أصح المطابع، كراتشي، باكستان، ص ٢.

بالشرح ـ مطوّلة ومتوسطة ومختصرة ـ وبالتعليقات والحواشي عليه بالترجيح والتصحيح والتخريج لمسائله، وكان اهتمامهم به اهتماماً فاق اهتمامهم بسائر الكتب الفقهية في المذهب الحنفي، وبلغت الشروح والتعليقات على المختصر المبارك مبلغاً كبير العدد،وهذه بعضها:

- إسماعيل بن الحسين البيهقي ت ٤٠٢هـ في **الكفاية**.
- أبو نصر أحمد بن محمد بن محمد الأقطع، تلميذ القدوري ت ٤٧٤هـ، وقد قام الإمام القاسم بن عبد الله بن قطلوبغا ت ٨٧٩هـ بشرح غريب أحاديث هذا الشرح في غريب الأحاديث المذكورة في **شرح مختصر القدوري** للأقطع(٨٤).
- علي بن محمد البزدوي ت ٤٨٢هـ.
- خواهر زاده محمد بن الحسين أبو بكر البخاري ت ٤٨٣هـ في **شرح مشكلات القدوري** و**فوائد القدوري**(٨٥).
- عبد الرب بن منصور الغزنوي ت ٥٠٠هـ في **ملتمس الإخوان**(٨٦).
- جمال الدين أبو سعيد المطهر بن الحسن بن سعيد بن علي بن بندار اليزدي ت ٥٩١هـ في **اللباب**(٨٧).
- علي بن أحمد بن مكي الرازي حسام الدين ت ٥٩٨هـ في **خلاصة الدلائل في تنقيح المسائل**، وعلى هذا الشرح ثلاث تعاليق لابن صبيح أحمد بن عثمان التركماني ت ٧٤٤هـ، الأولى: في حل مشكلاته، والثانية: فيما أهمله من المسائل، والثالثة: في أحاديثه والكلام عليها. مطبوع(٨٨).
- محمد بن إبراهيم الرازي النوري ت ٦١٥هـ.
- أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الكريم الموصلي ت ٦٢٨هـ، ولم يتمه.
- محمد بن رسول الموقاني ت ٦٤٤هـ في **البيان**(٨٩).

٨٤- وله نسخة في الظاهرية بدمشق والتي نسخها ٨٤٧هـ. انظر: **الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط**، المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، مؤسسة آل البيت، عمان، ١٤٢١هـ، ٥/ ٤٥٥.

٨٥- وله نسخة في حسني باشا باسطنبول (٤٢١) ونسخة في نافذ باشا باسطنبول (٢٧٤).

٨٦- وله نسخة في مراد ملا بتركيا (٩٠٩). انظر: **الفهرس الشامل**، ١٠/ ٣٢٥.

٨٧- كما ذكر صاحب **كشف الظنون**، ١/ ٥٦٢.

٨٨- طبع الكتاب في مجلدين بتحقيق أبي الفضل الدمياطي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

٨٩- كما في **كشف الظنون**، ٢/ ١٦٣٢.

- نجم الدين مختار بن محمود الزاهدي ت ٦٥٨هـ في **المجتبى**[٩٠].
- حميد الدين علي بن محمد بن علي الضرير الرامُشي البخاري ت ٦٦٧هـ في **الفوائد البدرية**[٩١].
- إبراهيم بن عبد الرزاق بن خلف الرسعني المعروف بابن المحدث ت ٦٩٥هـ، ولم يتمه.
- رشيد الدين أبو عبد الله محمود بن رمضان الرومي الشبلي توفي حدود ٧٢٣هـ في **الينابيع في معرفة الأصول والتفاريع**[٩٢].
- يوسف بن عمر بن يوسف الصوفي الكادوري المتوفى ٨٣٢هـ في **جامع المضمرات والمشكلات**[٩٣].
- القاسم بن عبد الله بن قطلوبغا ت ٨٧٩هـ في **الترجيح والتصحيح**. مطبوع[٩٤].
- أبو بكر بن علي الحداد العبادي ت ٨٠٠هـ في **السراج الوهاج الموضح لكل طالب ومحتاج**، واختصر هذا الشرح في **الجوهرة النيرة** وهو مطبوع[٩٥]، وجرد **السراج الوهاج** الشيخ أحمد بن محمد بن إقبال وسماه **البحر الزاخر**[٩٦].

وممن نظمه:

- أبو المظفر محمد بن أسعد المعروف بابن الحكيم ت ٥٦٧هـ[٩٧].
- أبو بكر بن علي سراج الدين الهاملي (ت ٧٦٩هـ)[٩٨].
- حافظ الدين محمد بن محمد الكردري المعروف بابن الرازي ت ٨٢٧هـ[٩٩].

٩٠- وهذا الشرح يعد من أكبر شروح المختصر، يقع في ثلاث مجلدات، وله نسخ عديدة، انظر: **الفهرس الشامل**، ٩/ ٦٤.

٩١- ذكره كارل بروكلمان في **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة: بإشراف محمود فهمي حجازي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ١، ١٩٩٣م، ٣/ ١٢٠، انظر: **الفهرس الشامل**، ٧/ ٧٣٩.

٩٢- وله نسخ كثيرة كما ذكر في **الفهرس الشامل**، ١١/ ٦١٧.

٩٣- له نسخ خطية عديدة، منها نسخة مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة، ٧٥/ ٢٥٤، فقه حنفي، انظر: **الفهرس الشامل**، ٣/ ٨١ .

٩٤- طبع الكتاب بتحقيق الأستاذ ضياء يونس بدار الكتب العلمية، ١٤٢٣هـ.

٩٥- طبع عدة طبعات باسطنبول وبدهلي بالهند، وصور منها. كما له نسخ خطية كثيرة، انظر: **الفهرس الشامل**، ٣/ ٣١٣.

٩٦- كما ذكر حاجي خليفة في **كشف الظنون**، ٢/ ١٦٣١.

٩٧- انظر: **كشف الظنون**، ٢/ ١٦٣٢.

٩٨- ذكره إسماعيل باشا البغدادي في **هدية العارفين**، ١/ ٢٣٥.

٩٩- كما ذكر حاجي خليفة في **كشف الظنون**، ٢/ ١٦٣٣.

- وقد قام أبو الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني ت ٥٩٣هـ بالجمع بين **الجامع الصغير** لمحمد بن الحسن و**مختصر القدوري** في مختصره المشهور: **بداية المبتدي في الفروع**، ثم شرحه في كتابه المعروف بـ: **الهداية شرح بداية المبتدئ**(١٠٠).
- وقد قام الإمام مظفر الدين أحمد بن علي بن ثعلب المعروف بابن الساعاتي البغدادي ت ٦٩٤هـ بجمع مسائل القدوري مع غيرها في مختصر بديع هو **مجمع البحرين وملتقى النهرين**(١٠١)، وقد شُرح هذا المختصر بشروح كثيرة(١٠٢).

كما أن الكتاب ترجمت بعض فصوله إلى اللغة الألمانية والفرنسية في بدايات القرن التاسع عشر الميلادي(١٠٣)، وأما ترجمته إلى اللغات التركية والأردية ونحوها فكثيرة، وخاصة في القارة الهندية، حيث يعد الكتاب من أهم مقررات المدارس الدينية، بل هو أول كتاب يدرس لطلبة الفقه الإسلامي(١٠٤).

المطلب الثالث: منهج القدوري في مختصره، ومصادره، ومقارنته ببعض المختصرات:

لم أجد في النسخ المطبوعة والمخطوطة لكتاب المختصر (بحسب اطلاعي) مقدمة للكتاب، ولو وُجدت لعلمنا غرض ا لمؤلف من التأليف وأسلوبه وطريقة عرضه للمسائل،وتقسيم أبوابه وفصوله في الكتاب، وفلسفته في ذلك، من المؤلف نفسه كما هي عادة المؤلفين غالباً. وكما ذكر المؤلف نفسه في مقدمة كتابه **التجريد** موضحاً الغرض من التأليف، ومبيناً أهم محتويات الكتاب وطريقة عرضه بإيجاز، بقوله: "قد أفردنا في هذا الكتاب ما خالف فيه الشافعي بإيجاز الألفاظ، واستيفاء معانيه، وأوردنا الترجيح؛ ليشترك المبتدئ والمتوسط في فهمه والانتفاع به، والله ولي التوفيق"(١٠٥). ويتميز المختصر بوضوح اللفظ وسلاسة العَرض، وسهولة الأسلوب، وسلامة العبارة، لا تشعر فيه بتعقيد ولا بخفاء، بل يلازمك ما قرأت فيه ظهور المعنى، وجلاء المراد، ووضوح الغرض.

رتّبه المؤلف رحمه الله تعالى على ثلاثة وستين باباً :

١٠٠- والكتاب معروف ومشهور لدى الأحناف وطبع طبعات عدة.

١٠١- طبع بدار الكتب العلمية ببيروت بتحقيق إلياس قبلان. كما للكتاب نسخ عديدة، انظر: **الفهرس الشامل**، ٩/ ٨٢ .

١٠٢- انظر: مقدمة التجريد للقدوري، للمحقق.

١٠٣- انظر: أحمد بن محمد القدوري، مقدمة كتاب **التجريد**، تحقيق علي جمعة وغيره، دار السلام، القاهرة، ط ١، ١٤٢٥هـ ١/ ١٤.

١٠٤- يراجع مقدمة كتاب **اللباب في شرح الكتاب**، حيث ذكر المحقق أغلب شروح المختصر، مطبوعها ومخطوطها، مع دراسة مستفيضة عن بعضها، وقد أفدت منها كثيراً . فجزاه الله تعالى خيراً.

١٠٥- مقدمة **التجريد**، ١/ ٥٣.

بدأها بأبواب العبادات، من: الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج.

فأبواب المعاملات وما يتبعها من: البيوع، والرهن، والحجر، والإقرار، والإجارة، والشفعة، والشركة، والمضاربة، والوكالة، والكفالة، والحوالة، والصلح، والهبة، والوقف، والغصب، والوديعة، والعارية، واللقيط، واللقطة، والخنثى، والمفقود، والإباق، وإحياء الموات، والمأذون، والمزارعة، والمساقاة.

فأحكام الأسرة وما يتبعها، من: النكاح، والرضاع، والطلاق، والإيلاء، والخلع، والظهار، واللعان، والعدة، والنفقات، والحضانة، والعتاق، والمكاتب، والولاء.

فأبواب الجنايات والحدود، من: الجنايات، والديات، والمعاقل، والحدود، والسرقة.

فأبواب الأشربة، والصيد، والذبائح، والأضحية، والأيمان، والدعوى، والشهادات والرجوع عنها، وآداب القاضي، والقسمة، والإكراه، السِّيَر، والحظر، والإباحة، والوصايا، والفرائض التي ختم بها الكتاب.

كما افتتح المؤلف رحمه الله كتابه المبارك بقول الله عزوجل (متيمنا ومتبركاً) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾[١٠٦][١٠٧]، واستشهد في بدايته[١٠٨] بحديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: "أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى سُباطة[١٠٩] قوم فبال، وتوضأ، ومسح على ناصيته وخُفيه ..."[١١٠]، وبعد ذلك قلّما تطرق إلى الاستدلال في أثناء الكتاب[١١١]. وأما بالنسبة للخلاف فإنه رحمه الله يقارن غالباً بين آراء أشهر أئمة المذهب: أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد رحمهم الله، بل وزفر رحمه الله أحياناً[١١٢]. وقد بلغ عدد مسائله اثني عشر ألف مسألة[١١٣].

ومن مزايا هذا المختصر: أن القدوري ضمّنه المسائل العلمية المهمة المتداولة الواقعة في حياة الناس دائماً، وتجنب المسائل النادرة الوقوع، والقضايا الغريبة في المجتمعات، ومن ثم لم يستغن اللاحقون

١٠٦- سورة المائدة، الآية: ٦.

١٠٧- انظر: **مختصر القدوري**، ص ٤.

١٠٨- انظر: المرجع السابق، ص ٥.

١٠٩- السباطة: هي الموضع الذي يرمى فيه التراب والأوساخ وما يكنس من المنازل، **النهاية** لابن الأثير، مادة "سبط".

١١٠- جزء من حديث أخرجه ابن ماجه في **سننه**، كتاب الطهارة، باب ما جاء في البول قائماً، ٣٠٥، ٣٠٦، وصححه الألباني، انظر: **صحيح سنن ابن ماجه** له، ١/ ٥٦.

١١١- انظر: **مختصر القدوري**، ص ٣٤، ٣٩ وما بعدها.

١١٢- انظر: المرجع السابق.

١١٣- انظر: **كشف الظنون**، ٢/ ١٦٣١.

له من فقهاء المذهب عن كتابه المختصر في التأليف من التضمين له، أو توضيح مشكلاته، أو الاستدلال لمسائله، إضافة لما عُلم بالتزام القدوري إيراد المسائل المعتمد عليها دون ما سواها وأشهرها ذكراً، وأقواها اعتماداً، مما تطمئن النفوس في التلقي لأحكام دين الله عزوجل وشرعه.

وهذا ما حدا بالإمام السمرقندي أن يفتتح كتابه بقوله: "اعلم أن المختصر المنسوب إلى الشيخ أبي الحسين القدوري رحمه الله جامع جملاً من الفقه مستعملة؛ بحيث لا تراها مدى الدهر مهملة، يهدى بها الرائض في أكثر الحوادث والنوازل، ويرتقي بها المرتاض إلى أعلى المراقي والمنازل، ولما عمت رغبة الفقهاء إلى هذا الكتاب، طلب مني بعضهم من الإخوان والأصحاب، أن أذكر فيه بعض ما ترك المصنف من أقسام المسائل، وأوضح المشكلات منه بقوي من الدلائل، ليكون ذريعة إلى تضعيف الفائدة بالتقسيم والتفصيل، ووسيلة بذكر الدليل إلى تخريج التحصيل ..."(١١٤).

مصادر المؤلف في مختصره:

ذكرنا سابقاً أن المؤلف لم يجعل لكتابه مقدمة ندرك منها غرض تأليفه، ونتوصل من خلالها إلى مصادر مختصره التي استقى منها المسائل التي دوّنها، ولم يذكر المؤلف رحمه الله تعالى أيضاً في ثنايا كتابه المصادر التي استفاد منها في هذه القضايا، لا تصريحاً ولا إيماءً، وكذا السنة التي بدأ بتأليف المختصر فيها، كما هي عادة كثير من المؤلفين. وغالب الظن أن القدوري صنف مختصره في آخر عمره حيث جمعه لولده محمد والذي توفي سنة ٤٤٠هـ وهو شاب قبل أوان الرواية، وتوفي المؤلف سنة ٤٢٨هـ، مما يشعر القارئ أنه صنفه في العشر الأخير من عمره، بعد نضج عقله وفهمه، وبلوغه المراتب العالية في العلم والفقه، وهذا ما عرف عنه رحمه الله تعالى، ومن ثم يعلم أن المؤلف وضع عصارة فقهه، وزبدة علمه، وخلاصة فهمه في مختصره المبارك، ولا غرو بعد هذا أن يسمى المختصر "الكتاب".

وأما من جهة المصادر فالذي يعرف بداهة في مثل هذه الحالة أن المؤلف رحمه الله استقى معلومات مؤلَّفه من كتب أسلافه في المذهب. فأوائل هذه الكتب التي استقى منها المسائل: هي كتب أصول المذهب المسماة بكتب ظاهر الرواية للإمام محمد بن الحسن الشيباني ـ إذ على كتبه الاعتماد في نقل المذهب ـ وهي: الأصل **المبسوط**، و**الجامع الكبير**، و**الجامع الصغير**، و**السِّير الكبير**، و**السِّيَر الصغير**، و**الزيادات**، إضافة إلى ما كتب عليها من شروح لفقهاء المذهب وأئمته. كما يتوقع أيضاً أنه استفاد من المختصرات السابقة عنه لأئمة المذهب، مثل **مختصر الطحاوي** ٣٢١هـ، و**مختصر الكافي** للحاكم الشهيد

١١٤- مقدمة **تحفة الفقهاء** للسمرقندي.

٣٣٤هـ، و**مختصر الكرخي** ٣٤٠هـ خاصة؛ حيث شرحه المؤلف شرحاً مستفيضاً موسعاً، بل يعد شرحه هذا من أوسع وأكبر كتب القدوري رحمه الله تعالى، وأسأل الله تعالى أن يظهر للقراء عاجلاً. والله الموفق.

ولا غرو أنه استفاد أيضاً في جمع مختصره من كتب أخرى لا تعرف في وقتنا، وهكذا قدم الإمام القدوري تحفة رائعة للمذهب الحنفي، باختيار أقوى الروايات والقول المعتمد في المذهب، بأسلوب سلس رائع، وبتنسيق وترتيب جميل،حتى أصبح المختصر كعبة ومرجعاً لفقهاء المذهب خاصة، ولجميع المسلمين عامة.

مقارنة نص مختصر القدوري مع نصوص المتون الأخرى:

من أجل توضيح وإظهار مكانة نص المختصر بين سائر متون الفقه الحنفي لا بد من إجراء مقابلة ومقارنة بين نص المختصر وبين بعض نصوص المتون المعتمدة في المذهب التي تناولت الموضوع نفسه، حتى يتبين الأمر بجلاء ووضوح للقارئ المتأني، ومن ثَمَّ يظهر موقع المختصر وأهميته، كما ارتضاه فقهاء المذهب عبر القرون ـ مقدماً ومبرزاً على بقية المتون الفقهية في المذهب. وقد اخترت ثلاثة متون معتمدة في المذهب لإجراء المقارنة مع المختصر، واخترت نصاً واحداً من باب واحد من الكتب الأربعة، وذلك لإظهار وتبيان ما يمكن تبيانه من خلال مقارنة النصوص، والمتون الثلاثة هي: **المختار** للموصلي، **الوقاية** للمحبوبي، **كنز الدقائق** للنسفي، والباب هو مقدمة باب التيمم:

نص مختصر القدوري: "ومن لم يجد الماء وهو مسافر أو خارج المصر، بينه وبين المصر نحو الميل أو أكثر، أو كان يجد الماء إلا أنه مريض، فخاف إن استعمل الماء اشتد مرضه، أو خاف الجنب إن اغتسل بالماء أن يقتله البرد أو يمرضه، فإنه يتيمم بالصعيد"(١١٥).

نص المختار للموصلي: "من لم يقدر على استعمال الماء لبعده ميلاً، أو لمرض (ف) أو بردٍ (ف) أو خوف عدوٍّ أو عطش أو عدم آلة، يتيمم بما كان من أجزاء الأرض ..."(١١٦).

نص الوقاية للمحبوبي: "هو لمحدث وجنب وحائض، ونفساء لم يقدروا على الماء؛ لبعده ميلاً، أو لمرض أو برد أو عدوٍ أو عطش أو عدم آلة ... على كل طاهر من جنس الأرض كالتراب والرمل والحجر ..."(١١٧).

١١٥- **مختصر القدوري**، ص ٥٠.

١١٦- **الاختيار لتعليل المختار**، ١/ ٢٠.

١١٧- **الوقاية مع شرح الوقاية**، ١/ ٥٧، ٥٨.

نص كنز الدقائق للنسفي: "يتيمم لبعده ميلاً عن ماء، أو لمرض، أو برد، أو خوف عدو، أو سبع، أو عطش أو فقد آلة، مستوعباً وجهه ويديه مع مرفقيه بضربتين... بطاهر من جنس الأرض"(١١٨).

أوجه المقارنة:

* سلاسة العبارة: بنظرة سريعة يجد القارئ المتأني بأن نص القدوري سهل مستساغ سلس، يتبين الغرض من العبارة ويُفهم المقصود منه من أول وهلة.
- بينما نجد في نصوص المتون الأخرى بأن القارئ يحتاج إلى التأني وتقدير المحذوف، واحتمال أكثر من وجه.
* كما أن نص القدوري خالٍ من ذكر موافقة ومخالفة المذاهب الأخرى؛ مراعاة لثقافة وعمر المتلقى؛ حتى لا يُشَوَّش في تلقي المعلومات الأولية، وقد راعى المؤلف في جميع عبارات الكتاب جانب المتلقي.
- بينما نجد صاحب **المختار** يذكر المخالف في المسائل بالرمز ـ وهو جيد لطلاب المرتبة العالية نسبياً ـ بينما يؤدي الطالب المتبدئ إلى شيء من الخلل والتشويش في تثبيت المعلومات الضرورية المذهبية؛ إذ التقدير في قارئ هذه المتون غالباً المبتدئ في التفقه والصغير في السنِّ.
* نجد في نص القدوري استيعاب الفكرة المتعلقة بالمسألة، وذكر أساس القضية.
- مثلاً ذكر صاحب المختصر "وهو مسافر" و "فخاف إن استعمل الماء اشتد مرضه أو خاف الجنب إن اغتسل بالماء أن يقتله البرد أو يمرضه فإنه يتيمم بالصعيد".
- إذ السفر أهم علة الحكم، فنص عليه القدوري، ولم يذكره الآخرون.
- والعبارة الثانية "فخاف إن استعمل ..." وضح بأن جواز التيمم مناط أيضاً بخوف اشتداد المرض.
- بينما الآخرون أشاروا إلى ذلك تضميناً، لكن قد لا يدرك المبتدئ ذلك.
- والعبارة الثالثة "أو خاف الجنب .." نظر صاحب المختصر في الحكم إلى ما يترتب عليه، بمعنى: ما يؤول إليه الحكم، إن استعمل الماء وهو في تلك الحالة.
- فهذا الجانب لم يتعرض له أحد من أصحاب المتون الأخرى.

١١٨- أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، **كنز الدقائق**، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٥٧.

* استعمل القدوري عبارة "يتيمم بالصعيد"، فالصعيد كلمة جامعة شاملة للمعنى المطلوب، حيث حرص المؤلف على استعمال ألفاظ الوحي تبركاً واختصاراً أولاً ثم ذكر ما ذكره الآخرون (من باب الجواز والاستيعاب).

- بينما الآخرون ذكروا معنى "الصعيد" بألفاظ كثيرة: وكقول النسفي "بما كان من أجزاء الأرض". كقول النسفي: "بطاهر من جنس الأرض". من غير أن يذكر الصعيد الطيب.

* كما يرى الناظر في مجمل هذا النص أن المؤلف رحمه الله راعى جانب الفقه المستعمل الواقع في حياة الناس بصورة دائمة، وابتعد عن ذكر أمور بعيدة الوقوع ـ وإن كان من ضمن العلل ـ مثل: "العدو، أو السبع، أو العطش" ونحوها. وهذا ما أكد عليه اللاحقون للمؤلف من الفقهاء، وقد مر قول السمرقندي في مقدمة كتابه **تحفة الفقهاء**: "إن المختصر .. جامع جملاً من الفقه مستعمله، بحيث لا تراها مدى الدهر مهملة ..".

- أخيراً فقد وفق الله عزوجل المؤلف توفيقاً عظيماً في تأليف هذا المختصر المبارك وأيّده بتأييد من عنده، حتى لقي القبول لدى الدارسين والمدرسين قبولاً منقطع النظير.

وقد قال العيني في **البناية**: "سمعت من بعض الأساتذة الكبار يقول: إن القدوري رحمه الله تعالى لما فَرَغَ من تصنيف مختصره المنسوب إليه حجَّ، وأخذ المختصر معه، ولما فرغ من طوافه سأل الله سبحانه وتعالى أن يوقفه على خطأ فيه، أو سهوٍ منه وقَعَ عن قلم، ثم إنه فتح المختصر وتصفَّحه ورقةً ورقةً إلى آخره، فوجد فيه خمسة مواضع، أو ستة مواضع ممحوة، وهذا يُعدُّ من كرامته"(١١٩).

فجزى الله عزوجل المؤلف جزاءً حسناً لما قدمه من جهود علمية فذة، وأجزل له المثوبة وغفر الله تعالى له ورحمه، وأسكنه فسيح جنته . آمين.

خلاصة البحث:

كلمة المختصر شاع استعمالها لكتاب يختصره وتُستل مادته من كتاب آخر مطول، ولكن هذا المعنى ليس مطرداً بل يطلق ويراد بها: الكتاب المشتمل لأهم المعلومات بأقل الألفاظ وأوجزها في ذلك الفن دون أن يكون مختصراً لكتاب معين.

والمتن: هو ما يكتبه مؤلفه ابتداءً، أو استخلاصاً من كتب السابقين، دون الارتباط بشرح كتاب آخر. والمتن يأتي بمعنى المختصر، ويأتي مقابلاً للشرح، ثم إن المتن لا يكون مختصراً مطرداً دائماً، فكل

١١٩- **البناية شرح الهداية**، طبعة باكستان، ٥/ ١٢٦.

كتاب مشروح يعد متناً سواء كان صغيراً أم كبيراً.

- نشأت المختصرات في شتى الفنون، وفي الفقه المذهبي على القول المعتمد خاصة بعد القرن الأول، وذلك: لتقريب وتسهيل العلم لمن أراد تعلمه وحفظه، فإن الكلام يختصر ليحفظ.
- بلغ الإمام القدوري مكانة بارزة بين فقهاء المذهب الحنفي، حيث انتهت إليه بالعراق رئاسة المذهب، وعُدّ من طبقة المجتهدين في المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب لدى المحققين من فقهاء المذهب.
- أصول المذهب الحنفي: هي كتب ظاهر الرواية الستة لمحمد بن الحسن الشيباني.
- ثم تبعه الحاكم الشهيد بكتابه **الكافي** حيث جمع فيه كتب ظاهر الرواية. وتبعه الطحاوي بـ: **مختصره**، ثم الكرخي، ثم جاء القدوري ونافس الجميع بـ: **مختصره**.
- وتلاهم في عصر المتون المحبوبي بـ: **الوقاية** والموصلي بـ: **المختار** والنسفي بـ: **الكنز** فأصبحت هذه المتون هي المعتبرة والمعتمدة في المذهب ومقدمة على الشروح والفتاوى. "إن المتون موضوعة لنقل ما هو المذهب، فلا يعدل عما فيها".
- كتاب **مختصر القدوري** حاز من القبول والثناء والتقدير ما لم يحز سائر كتب المذهب.
- كما أن اهتمام فقهاء الأحناف بالكتاب المختصر فاق عن سائر الكتب في المذهب اهتماماً وعناية.
- وبلغت الشروح والحواشي والتعليقات والتخريجات والتصحيحات على هذا الكتاب ما يربو عن مائة كتاب، بالإضافة إلى ترجمته إلى اللغات المختلفة.
- تميّز المختصر ـ من بين المختصرات ـ بوضوح اللفظ وسلاسة العرض، وسهولة الأسلوب، وسلامة العبارة، وجلاء المراد، ووضوح الغرض.
- فإذا أطلق الكتاب في المذهب الحنفي فيراد به: كتاب **مختصر القدوري** .

وصلى الله على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم.

Abstract

Status of *Mukhtaṣar* by al-Qudūrī in the Ḥanafī fiqh

This paper explains the significance of concise texts that have been in vogue in the Muslim academic tradition. These texts were produced and profusely used to put together the substantive

knowledge about various disciplines. These were helpful not only in enabling learners to register and absorb the essentials of a discipline, but were also a useful means for the teachers/scholars in the relevant discipline to employ as comprehensive text in teaching a discipline and elaborate their discourse further on that basis. In this respect, particular introduction has been attempted in this paper to bring to light the importance of *Mukhtaṣar* by al-Qudūrī, (d.428 AH), an outstanding Ḥanafī jurist of Baghdad in the fifth century of Hijra. This *Mukhtaṣar* enjoyed a popularity and acceptability among subsequent Hanafi jurists of all times that is unsurpassed. While there have been many other texts produced in various fields that were abbreviatively known as *al-Mukhtaṣar,* the impact of the treatise produced by Imam al-Qudūrī by far exceeds that of other texts. Even today *Mukhtaṣar* by al-Qudūrī has been widely in circulation in the academic circles of the Ḥanafī school in different parts of the world. The significance of this *Mukhtaṣar* is further augmented by tracing its origin to the basic sources of Ḥanafī jurisprudence namely, the six books known as *Zāhir al-Riwāya* by Muḥammad b. al-Ḥasan al-Shaybānī, *al-Kāfī* by al-Ḥākim al-Shahīd (which contained the former six books), al-Ṭaḥāwī and al-Karkhī in their works also known as *al-Mukhtaṣar*. In passing, some introduction has been given to similar texts that circulated in other schools of *fiqh*.

****

الدراسات اللسانية في تفسير "البسملة" في القرون الثلاثة الأولى

عبد الماجد نديم

إن الله تبارك وتعالى نزَّل على عبده محمد النبي الأمي صلى الله عليه وسلم الكتاب الكريم ـ القرآن الحكيمَ ـ هدايةً و رحمةً للعالمين مكْمِلاً دينَه ومُتمّاً نعمَه، مصدِّقا لما قبله من الكتب والرسل. واختار الله لكتابه المجيد البشير النذير لسانا عربيا حسب سنته التي مضت في القرون السالفة، يرسل الرسل وينزّل الكتاب في لسان المخاطبين، ليستفيدوا من كلام الله وكتابه حق استفادته ويقوموا بدورهم بنشر رسالته الخالدة، حتى يتحقّق الهدف ويُنال المطلوب، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾(١)، وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٢).

والمعلوم أن اللغة العربية لغة العرب ـ مخاطَبي النبي صلى الله عليه وسلم الأوّلين ـ الذين كانوا معتزّين بلسانهم، ومفتخرين بإبانة كلامهم وإعجام الآخرين، وكانت اللغة واستخدامها الأفصح والأبلغ مبلغ افتخارهم واعتزازهم، فطبقا لسنته تبارك وتعالى في إعجاز القوم في مجالٍ هم مفتخرون به، أعجزهم الله تعالى بإنزال الكتاب الحميد بلسانٍ أفصحَ من كلامهم وأبلغَ من شأنهم وأبينَ مما كان في إمكانهم ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾(٣)، ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(٤).

١- سورة الأحقاف، الآية: ١٢.

٢- سورة إبراهيم، الآية: ٤.

٣- سورة النحل، الآية: ١٠٣.

٤- سورة البقرة، الآية: ٢٣.

ولما كان القرآن كلاماً عربياً مبيناً، أُنزل على لغة العرب ولسانهم وسننهم في كلامهم، يحتاج كلُّ من أراد التأمُّل في معانيه والتدبّر لمفاهيمه أن يعرف سنن العرب في كلامهم، ويتدبّر في تلك السنن ويتأمّل في دقائقها. فنظراً إلى هذه الحقيقة تصدّى كلٌّ من الأسلاف الكرام والمفسرين العظام للإتقان والتعمق في العلوم التي تفيدهم في فهمه والغوص في معانيه، من الأصوات العربية، وقواعدها ـ من بنية الكلمة إلى بناء الجملة، ودلالة كلماتها وجملها، وأساليب العرب في كلامها من المعاني والبيان والبديع، فتيسّر لهم فهم كلام الله وتفهيمه، وبلغوا فيه ما لم تبلغه سائر الأمم في فهم الكتب المنزّلة عليهم.

وإن كل من تصفّح تاريخ التفسير وجد أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا بعد القرآن وسنة النبي صلى الله عليه وسلم يعوِّلون على معرفتهم بلغتهم وأساليبهم في الكلام في فهم معاني القرآن.

وكانوا يستدلون على تقرير المعنى بشيء من أشعار العرب، وعلى هذا السبيل جرى التابعون وأتباعهم دون نكير، وفيه تفصيل في تفاسير القرآن و كتب علومه[٥]. فنظراً إلى هذه الأهمية لعلوم اللسان العربي لم يُجز السلف الصالح تفسير القرآن لمن كان علمه بلغات العرب ناقصا من أية جهة حتى منعوا من الكلام فيه من لم يكن عالماً بها كما قال مجاهد: "لا يحلّ لأحدٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"[٦]، وقال الإمام مالك: "لا أوتى برجل غير عالمٍ بلغة العرب، يفسِّر كتاب الله إلا جعلته نكالاً"[٧] وقال الإمام الشاطبي في **الموافقات في أصول الشريعة**: "من أراد تفهم القرآن، فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلّب فهمه من غير هذه الجهة"[٨].

وإذا نظرنا وراءنا إلى أعرق تاريخٍ لتدوين التفسير وجدنا المساعي الأولى لفهم معاني القرآن وتفسيره في صورة **مجاز القرآن** و**غريب القرآن** و**معاني القرآن** و**إعراب القرآن** وغيرها من العناوين، وقد أفعم كل تفسيرٍ من هذه التفاسير بالدراسات اللغوية والنحوية والصرفية، وفي هذا الحشد أكبر حجّة

٥- أكبر شهادةٍ على استشهاد الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتبع التابعين بكلام العرب طلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشهادة على معنى "الأبّ" في القرآن الكريم (وفاكهة وّأبّا)، واستشهد أحد من شيوخ الهذيل بشعر شاعرهم فاطمأنّ عمر رضي الله عنه. وهكذا كان عبد الله بن عباس رضي الله عنه، أنه إذا سئل عن معنى كلمةٍ استشهد بشعر العرب، وكان يقول: إذا سألتموني عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب. وفي هذا تفصيل، انظر: الزمخشري، **الكشاف**، دار المعرفة، ٤/ ٢٢٠، ودار إحياء التراث العربي، ٤/ ٧٠٥، والقلقشندي، **صبح الأعشى**، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، ط ١، ١٩٠٣م، ١/ ٥٦، والسيوطي، **الإتقان لعلوم القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ١/ ٢٤٢.

٦- بدر الدين الزركشي، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار التراث، القاهرة، ١/ ٢٩٢.

٧- أبو بكر البيهقي، **شعب الإيمان**، تحقيق: زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ٢/ ٤٢٥، ٤٢٦.

٨- أبو إسحاق الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، دون تاريخ، ج ٢/ ٦٤.

لما نحن فيه من إثبات أهمية الدراسات اللسانية في تفسير القرآن الكريم. وكان الأوائل من المفسّرين يستعينون بعلوم اللسان العربي في شرح الآيات القرآنية، ولتحقيق هذه المهمة اختر ُ عَت العلوم اللسانية في اللغة العربية، ومما لا شكّ فيه أن علوم اللسان العربي من نحو وصرف ولغة ومعجم وبلاغة وأدب ترجع نشأة كلٍّ منها إلى تفسير القرآن الكريم وتبعاً له إلى جميع علوم الدين؛ ومن ثمّ تغلغلت علوم العربية في صلب علوم القرآن، من قراءةٍ وتفسيرٍ، فهنالك ارتباط قويّ وتلازم وثيقٌ وتآخٍ بين العلوم العربية والعلوم القرآنية، إذ إنه يعسُر على الدارس فصلُ تلك العلوم عن بعضٍ.

وهكذا، إن الواقف على تفاسير القرون الثلاثة الأولى يجدها مليئةً بالمباحث اللسانية من أصول الكلمات ومشتقّاتها، وشكلها وإعرابها، وتصريفها ومعانيها، وقلبها وإبدالها، وأدوات أخرى شغلتْ أهلَ اللغة والنحو والتصريف وعلماء البلاغة والعلوم اللسانية الأخرى. فالتفاسير القرآنية مشتملة على جواهر اللسان العربي وتراثه الغني، ما يغني الباحث عن المعاجم العربية وكتب النحو والتصريف وغيرها من الكتب التي تهتمّ بعلوم اللغة العربية، بل صارت تلك الموادّ اللغوية والنحوية والبلاغيّة وما إليها موضع استفادةٍ للّغويّين والنحويّين والبلاغيّين الذين جاءوا بعد أصحاب تلك التفاسير القيّمة، ولا نبالغ في القول إذ قلنا إن كتب التفسير بفضل اتجاههم اللغوي والأدبي و البلاغي والنحوي وجميع علوم العرب صارت دواوين لغة العرب ودواوينهم.

فنظراً إلى هذه المكانة للعلوم اللسانية في كتب التفسير، وأهمية تلك البيانات اللسانية فيها عند علماء اللغة والأدب، والنحو والبلاغة والمعاجم، يجد الباحث ضرورة الجمع والدراسة لتلك المباحث التي ناقشها علماء التفسير في القرون الثلاثة الأولى الهجرية تحت مظلّة كلمات القرآن الكريم وآياتها، دراسةً تحليليّة مع مقارنة آرائهم، وتوضيح اتفاقهم فيها واختلافهم مع إشارة تأثر وتأثير لهم، لتكون دراسةً أصيلةً ومفيدةً لكل من أراد فهم معاني القرآن الكريم ودراسة مشكلاته اللسانية من أمهات كتب التفسير، والوصول إلى تلك الآراء التي قال بها الأوّلون من المفسّرين الذين كانوا مصادرَ لا في التفسير فقط بل أيضاً في اللغة وعلوم اللسان العربيِّ.

إن ريادة هؤلاء المفسّرين ترجع إلى حبر الأمّة عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما، ابن عمّ النبي صلى الله عليه وسلم، لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عنه الأحاديث الصحيحة. وقال ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس(٩).

٩- انظر:ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، طبعة كلكتا، الهند، ١٨٥٣م، ٤/ ٩١ـ ٩٢.

ثمّ يأتي اسم حليف القرآن الإمام الشهيد زيد بن علي رحمهما الله، هو زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم، وكان رحمه الله يكنى بأبي الحسين. وقال فيه الإمام أبو حنيفة رحمه الله: "شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله فما رأيت في زمانه أفقه منه، ولا أعلم ولا أسرع جواباً ولا أبين قولا، لقد كان منقطع القرين"(١٠) وقال الإمام جعفر الصّادق رحمه الله ابن أخيه وتِربه: "كان والله أقرأنا لكتاب الله وأفهمنا في دين الله وأوصلنا للرّحم، والله ما ترك فينا لدنيا ولا لآخرة مثله"(١١).

ومن ثمّ النحوي المشهور صاحب **معاني القرآن** أبو زكريا يحيى بن زياد الفرّاء الكوفي، وكان المأمون قد وكَّلَ بالفرّاء ولديه يُلقِّنهما النحو. وورد عن ثعلب(١٢) أنه قال: لولا الفرّاءُ لما كانت عربية، ولَسَقطتْ لأنه خلَّصها(١٣). واللغوي الكبير صاحب **مجاز القرآن** أبو عبيدة معمر بن المثنّى الهروي، هو الإمام العلّامة البَحر، صاحبُ التصانيف. ولد في سنة عشر ومائة، قد كان من بُحورِ العلم(١٤). والنحوي العالم باللغة والأدب أبو الحسن سعيد بن مسعدة الأخفش الأوسط أخذ عن الخليل ابن أحمد، ولزم سيبويه حتى بَرَعَ، وله كتب كثيرةٌ في النحو والعَرُوض ومعاني القرآن(١٥). والأديب المفسّر اللغوي المؤرّخ أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري نزل بغداد، وصنَّفَ وجمعَ، وبَعُدَ صيته، وقد ولِيَ قضاء الدِّينَوَر، وكان رأساً في علم اللسان العرَبي، والأخبار، وأيام الناس... وإنما هو من كبار العُلاء المشهورين، عنده فنونٌ جمّة وعلومٌ مهمّة(١٦).

وصاحب **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** مصدر كلِّ مصدرٍ في علوم القرآن والتفسير

١٠- تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المعروف بالمقريزي، **الخطط المقريزيّة**، دار العرفان، بيروت، بدون رقم الطبعة والتاريخ، ٣/ ٣٣٥.

١١- المرجع نفسه، وجمال الدين أبو الحجاج يوسف المزي، **تهذيب الكمال**، دار الفكر، بيروت، بدون رقم الطبعة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ٦/ ٤٧٨، وصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ١٥/ ٢١.

١٢- هو العلامة المحدّث، إمام النحو، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني مولاهم البغدادي، صاحب تصانيف. ولد سنة مئتين ومات في إحدى وتسعين ومئتين. شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: حسين الأسد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ١٤/ ٥- ٧.

١٣- انظر: **سير أعلام النبلاء**، ١٠/ ١١٨- ١١٩.

١٤- انظر: المرجع نفسه، ٩/ ٤٤٥- ٤٤٧.

١٥- انظر: المرجع نفسه، ١٠/ ٢٠٦- ٢٠٨.

١٦- انظر: المرجع نفسه، ١٣/ ٢٩٦- ٣٠٢.

أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد بن كثير الطبري. هو الإمام العلم المجتهد، عالمُ العصر، صاحب التصانيف البديعة، من أهل آمُل طَبَرِسْتان. وكان من أفراد الدهر علماً وذكاءً، وكثرةَ تصانيف، قلَّ أن ترى العيون مثلَه(١٧).

وكان على هؤلاء المذكورين تعويل من جاء بعدهم من المفسّرين واللغويّين والمعجميّين والنحويّين والصرفيين والبلاغيّين، وكلِّ من كان له أدنى صلةٍ بعلوم القرآن واللسان العربي. وهؤلاء كانوا مجتهدين فيما ذهبوا إليه وأما من جاء بعدهم فقام مقام الراوي عنهم، أو الشارح لكلامهم أو المعلق على أقوالهم وآرائهم، ولو أكثرَ فقام مقام المرجِّح مذهباً على مذهب غيره أو رأياً على رأي آخر، ولو جاء أحد من المتأخرين برأي اجتهادي بدون الإسناد إلى المتقدمين أو الاعتماد عليهم فذاك شاذّ.

وفي هذه المقالة يركز الباحث اهتمامه على "البسملة" وما جاء فيها من المباحث اللسانية العربية في تفاسير القرون الثلاثة الأولى.

كلمة "البسملة" اسمٌ منحوت لـ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وهي أوَّل آية من القرآن الكريم تتلى وتكتب قبل كلِّ سورةٍ فيه تبرُّكاً بها، سوى سورة التوبة ذات الرقم ٩ في ترتيب المصحف والمسمّاة أيضاً بسورة البراة، وهي جزءٌ من الآية ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ الثلاثين من سورة النمل ذات الرقم السبع والعشرين في ترتيب المصحف.

وأمّا دراستها فنجد في البداية أن آية ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تشتمل على خمس كلماتٍ؛ وهي: بـ، اسم، الله، الرحمن والرحيم.

تعثر في تفاسير القرون الثلاثة الأولى الهجرية على دراسةٍ لسانيةٍ لكلِّ كلمةٍ من هذه الكلماتِ الخمسِ. ودُرست هذه الكلمات على مستوى بنية الكلمة وبناء الجملة والدلالة والأسلوب، وأمّا المستوى الصوتي فلا نجد له سبيلاً في تفاسير هؤلاء المفسّرين المذكورين تحت تفسير البسملة إلا قليلاً. وأمّا البحث الأسلوبيّ فيرتكز على ترتيب أسماء الله وصفاته "الله" و "الرّحمن" و "الرّحيم". وأغلبية الأبحاث اللسانية تتشكّل في دلالة الكلمات و بنيتها وبناء الجملة. ويجد الباحث تحت كلِّ كلمةٍ بحثاً على مستوىً واحدٍ وفي بعض الأحيان على مستويين أو أكثر، وفي كثير من الأحيان تكون لهذه الأبحاث صلة مباشرة بالكلمة القرآنية وجملتها وفي بعض الأحيان تكون هذه الصلة غير مباشرةٍ بل يتعرّض المفسّر لذلك البحث استطراداً. ترك الباحث تلك الأبحاث الاستطرادية اتّقاءً من التطويل وإبقاءً على صفحات هذه المقالة.

١٧- انظر: المرجع نفسه، ١٤/ ٢٦٧- ٢٨٢.

ولاستزادة إفادة هذه المقالة من حيث أصول علم الأصوات الحديثة وسدّ فراغ المستوى الصوتي في تفاسير القرون الأولى، قام الباحث بـ: تحليل هذه الكلمات الخمس المذكورة التي تشتمل عليها آية ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حسب قواعد علم الأصوات فونيمياً ومقطعياً(١٨).

أوّل كلمة في البسملة هي: باء الجرّ (بِ)، ذاتُ مقطع (Syllable) واحدٍ، وهو المقطع المنفتح القصير، المشتمل على الفونيمين: صامتٍ وحركةٍ قصيرةٍ (ص+ح) ويمكن تعبيره بـ: (C V) حسب طريقة إنجليزية اتّخذها اللغويون المحدثون، وأمّا نحن فنؤثر الحروف العربية بدل الحروف الإنجليزية.

وأمّا الدراسات اللسانية في القرون الثلاثة حول "باء الجرّ" فتطوّرت عبر الزمن، وبدأت هذه الدراسة من كتاب **مجاز القرآن** لأبي عبيدة، ولم يتصدَّ لهذا الموضوع أحدٌ قبله، حسبما عثرنا عليها من المساعي التفسيرية للقرآن الكريم قبله ومنها **معاني القرآن** للفرّاء. درس أبو عبيدة باء البسملة في تفسيره **مجاز القرآن** ولكنّه أيضاً لم يفصِّل فيه القول بل اكتفى بالذكر أنه الإضمار في قوله تعالى، ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، فيقول: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ففيه ضمير مجازه: "هذا بسم الله. أو بسم الله أول كل شيء ونحو ذلك"(١٩). ويقول في مقامٍ آخر: فمجاز تفسير قوله "بسم الله" مضمر، مجازه كأنك قلت: "بسم الله قبل كل شيء وأول كل شيء ونحو ذلك"(٢٠). ثمّ يستشهد بقول عبد الله بن رواحة(٢١) "من مشطور الرجز":

باسم الإله وبه بَدِينا ولو عبَدْنا غيرَه شَقِينا(٢٢)

١٨- المقطع هو الفترة الفاصلة بين عمليتين من عمليات غلق جهاز النّصويت "غلقاً كاملا أو جزئياً" فهو أبسط وحدة نطقيّة. هو مفهوم غربي فيما يبدو. لم يذكره النحاة العرب ولم يهتموا به إلا أننا نرى في العروض "السبب الخفيف" الذي يقابل المقطع. للتفصيل انظر: طيب البكوش، **التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث**، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م، ص ٧٧.

١٩- أبو عبيدة معمر بن المثنى، **مجاز القرآن**، تحقيق: محمد فؤاد سيزگين، محمد سامي أمين الخانجي الكتبي، مصر، ط ١، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م، ١/ ١١، ١٢.

٢٠- المرجع السابق: ١/ ٢٠.

٢١- هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا محمد، وقيل أبو رواحة، وقيل أبو عمرو. وكان ممن شهد العقبة، وكان نقيب بني الحارث بن الخزرج، وكان أحد الأمراء في غزوة مؤتة واستشهد بها، وكانت مؤتة في جمادى سنة ثمان من الهجرة. وكان من الشعراء الذين يناضلون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. عز الدين ابن الأثير علي بن محمد الجزري، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ، ٣/ ٢٣٧، ٢٣٨، وابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ج ٤/ ٦٦، ٦٧.

٢٢- وليد قصاب، **ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره**، دار العلوم، الرياض، ط ١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص ١٤٢. وهذا الرجز من شعره الذي كان يتمثل به المسلمون في يوم الخندق، وهم يحفرون وينقلون التراب.

فتدلّ عبارة أبي عبيدة أن هنالك إضماراً في "بسم الله الرّحمن الرّحيم" والمضمر هو: "هذا" أو "قبل كلِّ شيءٍ" و "أوّل كلِّ شيءٍ" ونحو ذلك.

في ضوء هذه المقتبسات من كلام أبي عبيدة نلاحظ أنّ أبا عبيدة لم يحدّد نوع الإضمار، هل هو مفرد أو مركّب؟ وهل هو اسم أو فعلٌ؟ ولكنْ من خلال الأمثلة التي أوردها أبو عبيدة في ذكر المضمر نستنبط أنه اسمٌ، والجار والمجرور متعلّقان في موضع رفع مبتدأ أو خبرٌ ومتعلقهما المحذوف مفردٌ أو مركّبٌ. وفي صورة "هذا بسم الله" الجار والمجرور خبر لمبتدأ محذوف. وأمّا الشاهد الشعري الذي أورده أبو عبيدة ففيه المقدَّرُ فعلٌ وهو "بدينا". وأمّا مسألة مكان المحذوف فإنه لم يحدِّد مكانه أهو متقدّم أو متأخّر، ولم يصرّح به ولم يفرِّق بين التقدّم و التأخّر فيه من خلال الأمثلة التي أوردها أبوعبيدة لبيان مسألة الإضمار.

وبعد ذلك جاء الأخفش صاحب **معاني القرآن** ولكنه يتصدّ لهذا البحث. ثم جاء ابن قتيبة صاحب **تفسير غريب القرآن** فأشار إلى هذا الإضمار ولكنه لم يصرّح به، فيقول في تفسير "بسم الله": "اختصار كأنه قال: أبدأ باسم الله أو بدأت باسم الله"(٢٣). اكتفى ابن قتيبة بهذه العبارة الموجزة. ولكنّنا نرى في ضوء مثاله الذي ساقه أنه ذهب إلى أن المحذوف فعلٌ وهو متقدّمٌ.

حتى جاء الطبري فتطوّر هذا البحث، وهو درس البسملة بالاستيعاب فذكر هذا الإضمار بشيءٍ من التفصيل، وفيه:

"الباء من "بسم الله" مقتضية فعلا يكون لها جالبًا، ولا فعلَ معها ظاهرٌ، فأغنت سامعَ القائل "بسم الله" معرفتُه بمراد قائله، عن إظهار قائل ذلك مُراده قولا إذْ كان كل ناطق به عند افتتاحه أمرًا، قد أحضرَ منطقُه به ـ إمّا معه، وإمّا قبله بلا فصْلٍ ـ ما قد أغنى سامِعَه عن دلالةٍ شاهدةٍ على الذي من أجله افتتح قِيله به. فصار استغناءُ سامع ذلك منه عن إظهار ما حذف منه، نظيرَ استغنائه ـ إذا سمع قائلا قيل له: ما أكلت اليوم؟ فقال: "طعامًا" ـ عن أن يكرّر المسئُولُ مع قوله "طعامًا"، أكلت، لما قد ظهر لديه من الدلالة على أن ذلك معناه، بتقدُّم مسألة السائل إياه عما أكل. فمعقول إذًا أن قول القائل إذا قال: "بسم الله الرحمن الرحيم" ثم افتتح تاليًا سورةً، أن إتباعه "بسم الله الرحمن الرحيم" تلاوةَ السورة، يُنبئ عن معنى قوله: "بسم الله الرحمن الرحيم" ومفهومٌ به أنه مريد بذلك: أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم. وكذلك قوله: "بسم الله" عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله، ينبئ عن معنى مراده بقوله "بسم الله"، وأنه

٢٣- ابن قتيبة، **تفسير غريب القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ٣٨.

أراد بقِيلِه "بسم الله"، أقوم باسم الله، وأقعد باسم الله. وكذلك سائر الأفعال"(٢٤).

وقد ذكر الطبري هذا الإضمار، ويحتوي كلامه على سبب لهذا الإضمار أو الحذف، ومنطق العقل السليم في السنن الكلامية حول هذا الحذف ـ أيضاً ـ. وحدّد نوع الكلمة المضمرة وهو الفعل، وأمّا مسألة التقديم والتأخير فالأمثلة التي ساقها فهي تُبدي ميله إلى أن الفعل المحذوف متقدِّمٌ، وإن لم يصرح بمكانه في عبارته، وهذا المسلك مثل مسلك ابن قتيبة الذي سبق. وأمّا عن مسألة دلالة الباء في البسملة فقد ذكر الأخفش خلال كلامه عن "الاسم" أنها باء الإلصاق(٢٥).

فمن خلال دراسة هؤلاء المفسّرين السبعة عثرنا على أن باء البسملة لم يذكرها ولم يشر إليها سوى أربعة، وهم: أبو عبيدة، والأخفش، وابن قتيبة و الطبري. والأخفش وحيد من هؤلاء المفسّرين مَن ذكر دلالة الكلمة، وأمّا الثلاثة الآخرون فبحثهم حول الإضمار في "بسم الله" يتلخّص في أن المضمر "اسم" حسبما ورد في عبارة أبي عبيدة و استشهاده، أو "فعل" كما صرّح به الطبري وذهب إليه ابن قتيبة وعليه تدل الرواية التي رُويت عن ابن عباس رضي الله عنهما: "أَوَّلُ مَا نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلى مُحَمَّد رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: قُلْ: بِسْمِ اللهِ يَا مُحَمَّدُ، يَقُولُ: اقْرَأْ بِذِكْرِ رَبِّكَ، قُمْ وَاقْعُدْ بِذِكْرِهِ"(٢٦).

وأمّا المتأخرون من المفسّرين فمنهم من ذكر الرّأيين المذكورين ومنهم من رجّح رأي الفعل وبه قال. وأسهب المتأخِّرون في بحث باء البسملة فتطرّقوا للبحث عن دلالة الباء و شيءٍ من التطويل في موقعه في الجملة(٢٧).

٢٤- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٣٧٤هـ/ ، ومؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج ١/ ١١٤، ١١٥.

٢٥- سعيد بن مسعدة البلخي المعروف بالأخفش الأوسط، **معاني القرآن**، تحقيق: عبد الأمير محمد أمين الورد، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ١٢٥، وبه قال سيبويه.

٢٦- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١١٥.

٢٧- للتفصيل انظر: الزجاجي، **إعراب القرآن**، تحقيق ودراسة: إبراهيم الأبياري، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م، ١/ ١٢، وانظر: تحت تفسير "بسم الله الرحمن الرحيم" النحاس، **إعراب القرآن**، تحقيق: زهير غازي زاهد، عالم الكتب، ط ٢، ١٤٠٥هـ، والثعلبي، **الكشف والبيان**، تحقيق: أبو محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، والمكي بن أبي طالب المكي القيسي، **مشكل إعراب القرآن**، والماوردي، **النكت والعيون**، وابن سيدة، **إعراب القرآن**، والعكبري، **إملاء ما منّ به الرحمن**، وابن عاشور، **التحرير والتنوير**، وأمّا معنى باء الجرّ فأوّل مفسِّر تصدّى لبيانه بعد الأخفش هو أبو جعفر النحّاس فنقل قول سيبويه قائلاً: قال سيبويه معنى الباء الإلصاق. ثمّ جاء بعده من المفسّرين الذين قالوا في هذه المسألة كثيراً وذكروا له معانيَ.

والكلمة الأخرى في البسملة هي: "اسم"، ذات مقطع واحدٍ ذي فونيمات (Phonemes) أربعة: (ص+ح+ص+ص) أي (c v c c)، وهو المقطع العنقودي(٢٨).

وأمّا في دراسات القرون الثلاثة الأولى فنجد شرحها في قول ابن عبّاس رضي الله عنهما: "إنَّ أول ما نزل به جبريلُ على محمد، قال: يا محمد، قُل: أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم . قال: قال له جبريل: قل بسم الله يا محمد، يقول: اقرأ بذكر الله ربك، وقم واقعد بذكر الله"(٢٩).

وعن الإمام زيد بن علي رحمهما الله: "بسم الله": هو تعظيم الله(٣٠).

يفسّر هذان المفسِّران الإضمار الواقع في "بسم الله" و المعنى المراد للبسملة فقط.

وفي التفاسير التي تلي تفاسير هذين الإمامين الجليلين نجد ثلاثة مباحث حول "اسم" في البسملة، وهي:

١- حذف ألف الاسم في البسملة لفظاً وخطّا.

٢- أصل كلمة "اسم" أو اشتقاقها.

٣- المراد من الاسم: هل الاسم والمسمّى واحد؟

وأمّا المسألة الأولى فحول بنية "اسم": يقول الفرّاء في بيان هذه المسألة في كتابه **معاني القرآن**: "اجتماع القرّاء وكتّاب المصاحف على حذف الألف من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، وفي فواتح الكتب، وإثباتهم الألف في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾"(٣١)(٣٢) قوله: اجتماع القرّاء وكتّاب المصاحف يدلّ على أن الإجماع على حذف ألف الاسم لفظاً وخطّاً، وأمّا السبب لذلك فيجيب عنه: "وإنما حذفوها من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أول السور والكتب، لأنها وقعت في موضع معروف لا يجهل القارئ

٢٨- هو مقطع ينتهي بأكثر من صامت.

٢٩- كذا عند الطبري في **جامع البيان**، ١١٥، وقال الطبري: حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشرُ بن عمارة، قال: حدثنا أبو رَوْق، عن الضحّاك، عن عبد الله بن عباس، قال. وكذا في **تفسير ابن أبي حاتم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية، صيدا، ١/ ٢٥، هو روى عن عَلِيِّ بْنِ طَاهِرٍ، وحدّثه مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاءِ يَعْنِي أَبَا كُرَيْبٍ الْهَمْدَانِيَّ، وباقي السند كما في **جامع البيان** للطبري.

٣٠- الإمام زيد بن علي، **تفسير غريب القرآن**، مكتب الإعلام الإسلامي، ط ١، ١٤١٤هـ، ص ١٢٠.

٣١- سورة الحاقة، الآية: ٥٢ وسورة الواقعة، الآية: ٧٤ و٩٦.

٣٢- الفرّاء، **معاني القرآن**، دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، ١/ ١ – ٢.

معناه، ولا يحتاج إلى قراءته، فاستخفّ طرحها لأن من شأن العرب الإيجاز وتقليل الكثير إذا عرف معناه. وأثبتت في قوله ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾[٣٣] لأنها لا تلزم هذا الاسم، ولا تكثر معه ككثرتها مع الله تبارك وتعالى. ألا ترى أنك تقول ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ عند ابتداء كل فعل تأخذ فيه: من مأكل أو مشرب أو ذبيحة. فخفّ عليهم الحذف لمعرفتهم به... فلا تحذفنّ ألف "اسم" إذا أضفته إلى غير الله تبارك وتعالى، ولا تحذفنّها مع غير الباء من الصفات وإن كانت تلك الصفة حرفا واحدا، مثل اللام والكاف[٣٤]. فتقول: لاسم الله حلاوة في القلوب، وليس اسم كاسم الله فتثبت الألف في اللام وفي الكاف لأنهما لم يستعملا كما استعملت الباء في اسم الله. ومما كثر في كلام العرب فحذفوا منه أكثر من ذا قولهم: أيش عندك، فحذفوا إعراب[٣٥] وإحدى ياءيه، وحذفت الهمزة من "شيء"، وكسرت الشين وكانت مفتوحة، في كثير من الكلام لا أحصيه"[٣٦].

فسبب إجماع القرّاء وكتّاب المصاحف على حذف ألف الاسم في البسملة بسبب شأن العرب الإيجاز والتقليل فيما كثر استعماله، فيطرحون فيه ما وقع في موضع معروف لا يجهل القارئ معناه. فحسب هذا الشأن هم يحذفون ألف اسم البسملة من الخطّ، ويتبيّن هذا الكلام من قول الأخفش الأوسط: "وحذفت الألف من "بسم" من الخط تخفيفاً لكثرة الاستعمال واستغناء عنها بباء الإلصاق في اللفظ والخط". أي حذفت الألف من الخطّ بسبب التخفيف لكثرة الاستعمال وللاستغناء عنها بباء الإلصاق. وأمّا لفظاً فبباء الإلصاق وكون الألف حرف زيادة في الكلمة، ويأتي البحث عنه في الفقرة القادمة.

وأمّا حذف الألف في الخطّ فهو فقط بسبب التخفيف لكثرة الاستعمال، وإن دخل على كلمة "الاسم" حرفٌ آخر مثل لـ، ك، و، من وغيرها من الحروف الجارّة أو العاطفة فثبتت ألف الاسم ولم تحذف، وإن استخدمت كلمة الاسم مضافةً إلى غير هذا الاسم (الله) فتثبت الألف كما في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[٣٧] و ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾[٣٨]، وكذا يقول الأخفش الأوسط: "فلو

٣٣- سورة الحاقة، الآية: ٥٢ وسورة الواقعة، الآية: ٧٤ و٩٦.

٣٤- الصفة عند الكوفيين حرف الجرّ والظرف، فالفرّاء هنا يقول لحروف الجرّ صفة.

٣٥- أراد من إعرابه: حركته.

٣٦- الفرّاء، **معاني القرآن**، ١/ ١ - ٢.

٣٧- سورة العلق، الآية: ١.

٣٨- سورة الحاقة، الآية: ٥٢ وسورة الواقعة، الآية: ٧٤ و ٩٦.

كتبت "باسم الرحمن" أو "باسم القادر" أو "باسم القاهر" لم تحذف الألف"(٣٩).

وأمّا المسألة الثانية: في بنية كلمة "اسم" فالبحث حولها في معاني القرآن للأخفش، وهذا البحث يتصل ببنية الكلمة وأيضاً يمُثِّل البحث الصوتي، وفيه: "والألف في "اسم" ألف وصل، لأنك تقول: "سُميّ" وحذفت لأنها ليست من اللفظ". الألف من "اسم" حذفت بسبب عدم كونها أصلاً في بنية الكلمة والدليل عليه عدمه في التصاريف الأخرى لهذه الكلمة. وإذا لم تكن أصلاً في بنية الكلمة فمن أين ولِمَ أتتْ وأدخلت على هذه البنية حتى صارت وعُدَّتْ جزءاً منها؟ فيجيب الأخفش عن هذا السؤال مبيّناً سبب زيادتها: "وإنما زيدت لسكون الحرف الذي بعدها لما أرادوا استئنافه فلم يصلوا إلى الابتداء بساكن، فأحدثوا هذه الألف ليصلوا إلى الكلام بها. فإذا اتصل (الكلام) بشيء قبله استغني عن هذه الألف"(٤٠). فالسبب لزيادة الألف هو سكون الحرف الذي بعدها وهي: سين، ولما كان البدء بحرفٍ ساكنٍ لا يمكنُ فأحدثوا هذه الألف لنطق الكلمة، فإذا اتصل بشيءٍ قبله، مثل بـ في البسملة فاستغني عن هذه الألف. والمعلوم أن هذا البحث عن الحذف في اللفظ، وأمّا خطًّا فمرّ الكلام عليه في بداية البحث عن الاسم.

وأمّا اشتقاق "اسم" فلم يبحث فيه أحدٌ من المفسّرين الذين نحن بصددهم. وأمّا المتأخرون عنهم، فهم أسهبوا فيه بكثير من التفصيل، وأغلبيتهم انقسمت إلى رأيين: فريق ذهب إلى أن "اسم" مشتقّ من "سما يسمو سمو" و الفريق الثاني يرى أنه مشتقّ من: "وسم يسم وسْماً وسمةً". الأوّل رأي البصريين والآخر رأي الكوفيين، وإن كلام الأخفش يدلّ على أنه يرى رأي الكوفيّين إذ قال في سبب زيادة الألف أنه بسبب سكون الحرف الذي بعدها، وذلك السكون في صورة "وسم يسم وسْماً".

والمسألة الأخرى في "اسم" هي: هل الاسم والمسمّى واحد أيْ هل اسم الشيء هو الشيء بعينه، و الاسم صفة زائدة في بسم الله الرحمن الرحيم والمراد به "بالله الرحمن الرحيم" أم هو غيره؟

وتصدّى لهذه المسألة أبو عبيدة في **مجاز القرآن**، والأخفش الأوسط في **معاني القرآن** والطبري في **جامع البيان**، فالعَلَم الأوّل الذي سبق إلى هذا البحث هو أبو عبيدة إذ قال: "بسم الله إنما هو بالله لأن اسم

٣٩- الأخفش، **معاني القرآن**، ص ١٢٥، ومن الجدير بالذكر أن مكي بن أبي طالب القيسي ذكر في **مشكل إعراب القرآن** له: فإن كتبت بسم الرحمن أو بسم الخالق حذفت الألف أيضاً عند الأخفش والكسائي، وقال الفراء لا تحذف إلا في بسم الله فقط فإن أدخلت على اسم الله غير الباء من حروف الخفض لم يجز حذف الألف عند أحد نحو قول: ليس اسم كاسم الله. وقولك: لاسم الله حلاوة. المكي بن أبي طالب القيسي، **مشكل إعراب القرآن**، ١/ ٥.

٤٠- الأخفش، **معاني القرآن**، ص ١٢٦.

الشيء هو الشيء بعينه"[٤١] واستشهد على ما ذهب إليه بقول لبيد[٤٢]:

إلَى الحَوْلِ ثُمَّ اسمُ السَّلامِ عليكما * ومن يَبْكِ حَولاً كاملاً فقدِ اعتَذَرْ[٤٣]

وإلى المذهب نفسه ذهب الأخفش الأوسط في **معاني القرآن** له، ولا يكتفي بذكر رأيه فحسب بل يضيف إليه سبب ورود كلمة "اسم" وحكمتها في البسملة، فيقول: "اسم صلة زائدة، زيدت ليخرج بذكرها من حكم القسم إلى قصد التبرّك، لأن أصل الكلام بالله"[٤٤]. أي وإن بدئ كلام الله تعالى بعبارة "بالله" مكان "باسم الله"لتشكّل الأمر في كونه القسم أو التبرّك، فزيد "اسم" ليتبيّن أنه للتبرّك لا للقسم.

وأمّا الطبري فيرى بالعكس، وأطال الكلام في ردّ أبي عبيدة فيقول: "وإنما معنى قوله "بسم الله": أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء"، ويذهب إلى أن "الاسم" المضاف إلى الله هو ليس باسم بل هو مصدر بمعنى التسمية[٤٥]. ثم يقول مبيّناً السبب في جواب سؤال ممكنٍ:

"إن العربَ قد تخرج المصادرَ مبهمةً على أسماء مختلفة، كقولهم: أكرمتُ فلانًا كرامةً، وإنما بناءُ مصدر أفعلتُ ـ إذا أخرج على فعله ـ الإفعالُ. وكقولهم: أهنت فلانًا هَوانًا، وكلّمته كلامًا. وبناء مصدر "فعَّلت" التفعيل. ومن ذلك قول الشاعر:

أَكُفْرًا بعد رَدِّ المَوْتِ عَنِّي وبعد عَطَائِكَ المِئَةَ الرِّتَاعَا[٤٦]

٤١- أبو عبيدة، **مجاز القرآن**، ١/ ١٦.

٤٢- هو لبيد بن ربيعة بن مالك، ويكنى بأبي عقيل العامري: أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، من أهل عالية نجد، أدرك الإسلام، ووفد على النبيّ صلى الله عليه وسلم ويعدّ من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر، فلم يقل في الإسلامي إلا بيتاً واحداً، قيل هو:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وسكن الكوفة، وعاش عمراً طويلاً. وهو أحد أصحاب المعلقات. انظر: الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢م، ٥/ ٢٤٠.

٤٣- **ديوان لبيد بن ربيعة**، اعتناء: حمد وطماس، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ٥١، البيت من الطويل من قصيدته التي يخاطب فيها ابنتيه لما حضرته الوفاة، ومطلع القصيدة:

تَمَنّى ابنتَايَ أنْ يَعيشَ أبُوهُمَا وهل أنا إلّا منْ ربيعةَ أو مُضَرْ

٤٤- الأخفش، **معاني القرآن**، ١٢٥.

٤٥- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١١٥- ١١٧.

٤٦- والشعر للقطامي، وهو عُمَيْر بن شيَيْم بن عمرو التغلبيّ، انظر: **ديوان القطامي**، ج. برث، ليدن، ١٩٠٢م، ص٤١. العطاء بمعنى الإعطاء، ولذلك نصب به "المئة". والرتاع جمع راتع: يعني الإبل ترتع في مرعى خصيب تذهب فيه وتجيء.

يريد: إعطائك. ومنه قول الآخر:

وَإن كانَ هذا البُخْلُ منْك سَجيةً لقد كُنْتُ في طَولِي رَجَاءكَ أَشْعَبَا(٤٧)

يريد: في إطالتي رجاءك. ومنه قول الآخر:

أَظُلَيْمُ إن مُصَابَكم رَجُلا أَهْدَى السّلامَ تحيَّةً ظُلْمُ(٤٨)

يريد: إصابتكم. والشواهد في هذا المعنى تكثُرُ، وفيما ذكرنا كفاية، لمن وُفِّق لفهمه.

فإذا كان الأمر ـ على ما وصفنا، من إخراج العرب مصادرَ الأفعال على غير بناء أفعالها ـ كثيرًا، وكان تصديرها(٤٩) إياها على مخارج الأسماء موجودًا فاشيًا، فبيِّنٌ بذلك صوابُ ما قلنا من التأويل في قول القائل "بسم الله"، أن معناه في ذلك عند ابتدائه في فعل أو قول: أبدأ بتسمية الله، قبل فعلي، أو قبل قولي.

وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن: "بسم الله الرحمن الرحيم"، إنما معناه: أقرأ مبتدئًا بتسمية الله، أو أبتدئ قراءتي بتسمية الله. فجُعِل "الاسمُ" مكان التسمية، كما جُعل الكلامُ مكان التكليم، والعطاءُ مكان الإعطاء"(٥٠).

ثم يستشهد بقول ابن عباس المذكور أعلاه، ويستدلّ به على صحّة ما قال هو وفساد ما قال غيره.

وهكذا يستدلّ الطبري بإجماع العلماء على هذه المسألة: أن قائلاً لو قال عند تذكيته بعض بهائم الأنعام "بالله"، ولم يقل "بسم الله"، أنه مخالف ـ بتركه "بسم الله" ما سُنَّ له عند التذكية من القول(٥١).

وفي جواب استشهاد أبي عبيدة بقول لبيد يقول الطبريّ: "قيل له: لو جاز ذلك وصحّ تأويله فيه على ما تأوّل، لجاز أن يقال: رأيتُ اسم زيد، وأكلتُ اسمَ الطعام، وشربتُ اسمَ الشراب، وفي إجماع جميع العرب على

٤٧- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١١٦، وفي الحاشية: لم أجد البيت. وأشعب: الطاع الذي يضرب به المثل في الطمع المستعر.

٤٨- المرجع السابق: الصفحة نفسها، وفي الحاشية: الشعر للحارث بن خالد المخزومي، وهو الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي، من قريش: شاعر غزل، من أهل مكة، نشأ في أواخر أيام عمر بن أبي ربيعة، وكان يذهب مذهبه، وتوفي سنة ٨٠هـ. انظر: **الأعلام**، ٢/ ١٥٤.

٤٩- المرجع السابق: ١/ ١١٧، وفي الحاشية: أراد بقوله: تصديرها: "أي جعلها مصادر تصدر عنها صوادر الأفعال، وذلك كقولك: ذهب ذهابًا، فذهب صدرت عن قولك "ذهاب"، ويعمل عندئذ عمل الفعل. وعنى أنهم يخرجون المصدر على وزن الاسم فيعمل عمله، كقولك "الكلام" هو اسم ما تتكلم به، ولكنهم قالوا: كلمته كلامًا، فوضعوه موضع التكليم، وأخرجوا من "كلم" مصدرًا على وزن اسم ما تتكلم به، وهو الكلام، فكان المصدر: "كلامًا".

٥٠- المرجع السابق، ١/ ١١٦، ١١٧.

٥١- المرجع السابق، ١/ ١١٨.

إحالة ذلك ما ينبئ عن فساد تأويل من تأول قول لبيد: "ثمّ اسم السلام عليكما"، أنه أراد: ثم السلام عليكما، وادِّعائه أن إدخال الاسم في ذلك وإضافتَه إلى السلام إنما جاز، إذ كان اسم المسمَّى هو المسمَّى بعينه.

ويُسأل القائلون قولَ من حكينا قولَه هذا، فيقال لهم: أتستجيزون في العربية أن يقال: "أكلتُ اسمَ العسل"، يعني بذلك: أكلت العسل، كما جاز عندكم: اسم السلام عليك، وأنتم تريدون: السلامُ عليك؟

فإن قالوا: نعم ! خرجوا من لسان العرب، وأجازوا في لغتها ما تخطِّئه جميع العرب في لغتها. وإن قالوا: لا سئلوا الفرقَ بينهما: فلن يقولوا في أحدهما قولا إلا أُلزموا في الآخر مثله"(٥٢).

والكلمة الثالثة: "الله" ذات مقطعين: منغلق قصير ومنغلق طويل.

وهما: "اَلْ" (ص+ح+ص) أي (cvc) و "لَاه" (ص+ح:+ص) أي (cv:c). كلاهما منغلقان أي ينتهيان بصامت، والفرق بينهما أن الأوّل فيه حركة قصيرة وفي الثاني حركة طويلة.

نعثر على بذرة البحث في المصادر التفسيرية القديمة حول هذه الكلمة، من قول ابن عباس رضي الله عنهما، ما ورد في **جامع البيان** للطبري عنه، قال: "الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين"(٥٣). وعليه انبنى رأي الطبري: "هو الذي يَأْلَه كل شيء، ويعبده كل خلقٍ"(٥٤).

وأمّا من حيث بنية الكلمة فلا نجد في ديوان العرب من "فعل يفعل" سماعاً، كما يعترف به الطبري، ولكنّ هذا البناء فقط من قبل الاستدلال. ويقول أن العرب قد استخدموا "تألّه" للعبادة وطلب ما عند الله، ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج(٥٥):

لله درُّ الغانياتِ المُدَّهِ سبحَنْ واسترْ َجَعْنَ مِنْ تَأَلُّهِي(٥٦)

٥٢- المرجع السابق، ١/ ١١٩ - ١٢٠.

٥٣- المرجع السابق، ١/ ١٢٣، والسند فيه: عن الطبري عن أبي كريب قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، قال: حدثنا أبو رَوْق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس. ونقله السيوطي في **الدر المنثور**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٠م، ١/ ٢٩.

٥٤- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٢.

٥٥- رؤبة بن العجاج: هو أبو محمد رؤبة بن العجاج بن عبد الله بن رؤبة البصري التميمي السعدي، هو وأبوه راجزان مشهوران، لكل منهما ديوان رجز ليس فيه شعر سوى الأراجيز، وهما مجيدان في رجزهما، وكان رؤبة بصيراً باللغة قيماً بحواشيها وغريبها، قد أدرك زمن الدولتين: الأموية والعباسية، وكان مقيماً بالبصرة ثم خرج إلى البادية، فأدركه أجله عندما وصل إلى الناحية التي قصدها في سنة ١٤٥هـ وكان قد أسنّ. **سير أعلام النبلاء**، ٦/ ١٦٢، **الأعلام**، ٣/ ٣٤.

٥٦- البيت في **ديوان رؤبة بن العجاج**، اعتناء وليم بن الورد الروسي، دار ابن قتيبة، الكويت، دون تاريخ، ص ١٦٥، من قصيدة قالها في وصف نفسه، المده: جمع ماده. ومده فلانًا يمدهه مدهًا: نعت هيئته وجماله وأثنى عليه ومدحه. و استرجعن: قلن إنا لله وإنا إليه راجعون. يقلنها حسرة عليه كيف تنسك وهجر الدنيا، بعد الذي كان من شبابه وجماله وصبوته!

يعني: من تعبدي وطلبي اللهَ بعملي[٥٧].

ثم يقول: "ولا شك أن "التألّه" التفعُّل من "أَلَه يأله"، وأن معنى أله ـ إذا نُطق به: ـ عَبَدَ اللهَ. وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بـ: فعل يفعل، بغير زيادة"[٥٨]. ويستدلّ عليه برواية سفيان بن وكيع قال: حدثنا أبي، عن نافع بن عُمر، عن عَمرو بن دينار، عن ابن عباس: "أنه قرأ "وَيَذَرَكَ وإلاهَتَكَ"[٥٩]، قال: عبادتَك، ويقال: إنه كان يُعبَد ولا يَعبُد"[٦٠].

وكذلك كان عبدُالله يقرؤها ومجاهد. وقال مجاهد: وعبادتَك[٦١].

ثمّ يقول الطبري شارحاً هذه الروايات: "ولا شك أن الإلاهة مصدرٌ من قول القائل: أَلَه اللهَ فلانٌ إلاهةً، كما يقال: عَبدَ الله فلانٌ عبادةً، وعَبَرَ الرؤيا عبارةً. فقد بيَّن قولُ ابن عباس ومجاهد هذا: أن "أله" عَبد، وأن "الإلاهة" مصدرُه"[٦٢].

الله من كلام العرب: أصله: الإله، إليه ذهب الطبري و استشهد بما جاء في القرآن الكريم: ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى ﴾[٦٣] لما ذهب إليه. فيقول: "أصله: لكن أنا، هو الله ربي، كما قال الشاعر:

وَتَرْمِينَنِي بالطَّرْف، أَيْ أَنتَ مُذْنبٌ وتَقْلِينَني، لكِنَّ إياكِ لا أَقْلِي[٦٤]

يريد: لكن أنا إياك لا أقلي، فحذَف الهمزة من "أنا" فالتقت نون "أنا" ونون "لكنْ" وهي ساكنة، فأدغمت في نون "أنا" فصارتا نونًا مشددة. فكذلك "الله" أصله "الإله"، أسقطت الهمزةُ التي هي فاء الاسم، فالتقت اللام التي هي عين الاسم، واللام الزائدة التي دخلت مع الألف الزائدة وهي ساكنة،

٥٧- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٣.

٥٨- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٥٩- وفي المصحف: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾، سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.

٦٠- انظر: الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٣، ورواية أخرى في ١/ ١٢٤، برواية: سفيان، قال: حدثنا ابن عُيينة، عن عمرو بن دينار، عن محمد بن عمرو بن الحسن، عن ابن عباس: "وَيَذَرَكَ وَإلاهَتَك"، قال: إنما كان فرعونُ يُعبَد ولا يَعبُد.

٦١- والرواية في **جامع البيان** للطبري، ١/ ١٢٤- ١٤٤ وفيه: حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين بن داود، قال: أخبرني حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد: قوله "ويذرَكَ وإلاهتك" قال: وعبادتَك.

٦٢- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٤.

٦٣- سورة الكهف، الآية: ٣٨.

٦٤- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٥.

فأدغمت في الأخرى التي هي عين الاسم، فصارتا في اللفظ لامًا واحدة مشددة، كما وصفنا من قول الله: لكنَّ هوَ الله رَبي"(٦٥).

هي أولى الجهات التي جاءت في اشتقاق كلمة "الله" ومن الملحوظ في تفاسير المتأخرين أنهم قالوا فيها قولين: أوّلاً: أنها مرتجلة، والثانية أنها مشتقّة، والذين يرونها مشتقّة انقسموا إلى رأيين: أوّلاً: أنها مشتقة من "أله يأله" كما مرّ. وثانياً: أنها مشتقة من "لاه" وعليه أدخلت لام التعريف فصارت "الله". واشتقاقه من "لاه يليإذا تستر ّ كأنه ـ تعالى ـ يسمّى بذلك لاستتاره واحتجابه عن إدراك الأبصار. ولهذا المعنى استشهد ببيت شعرٍ لذي الإصبع العدواني(٦٦):

لَاهِ ابنُ عَمِّكَ لاَ أَفْضَلْتَ في حَسَبٍ عنِّي ولا أنتَ دَيَّاني فتَخزوني(٦٧)

وأمّا الكلمة الرابعة والخامسة: "الرّحمن" و "الرّحيم"، فكلٌّ واحدٍ منهما ذات ثلاثة مقاطع، "الرّحمن" على منغلق قصير و منغلق قصير ومنغلق طويل، وهي: "اَرْ" (ص+ح+ص) (cvc)، و "رَحْ" (ص+ح+ص) (cvc) و "مَان" (ص+ح:+ص) (cv:c).

و"الرّحيم" ذات مقاطع: منغلق قصير ومفتوح قصير ومنغلق طويل، وهي: "اَرْ" (ص+ح+ص) (cvc) و "رَ" (ص+ح) (cv) و "حِيْم" (ص+ح:+ص) (cv:c).

لا خلافَ بين أحدٍ من المفسّرين واللغويين أن كلتي الكلمتين من الرّحمة على وزن فَعْلان و فَعِيل على وجه الترتيب. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الرَّحْمَنُ الْفَعْلانُ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ مِنْ كَلامِ الْعَرَبِ(٦٨).

٦٥- المرجع السابق، ١/ ١٢٥ - ١٢٦.

٦٦- انظر للتفصيل: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ١/ ١٥٨، وأمّا ذو الإصبع العداواني فهو حُرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة، من عدوان، ينتهي نسبه إلى مضر. وهو شاعر حكيم شجاح جاهلي. لقب بذي الإصبع لأن حية نهشت إصبع رجله فقطعها، ويقال: كانت له إصبع زائدة. وعاش طويلاً حتى عدّ في المعمرين. الزركلي، **الأعلام**، ٢/ ١٧٣.

٦٧- انظر: المفضل بن محمد بن يعلى الضبي، **المفضليات**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط ٧، بدون تاريخ، ٧٠. لاهِ: لله. وأفضلت أي تجاوزت في الفضل وديّان: القيّم بالأمر وتخزوني: تسوسني، من خزا يخزو خَزواً: ساسه وقهره وملكه.

٦٨- انظر: **تفسير ابن أبي حاتم**، ١/ ٢٥، وفيه: حدثنا عِلِي بن طاهر، ثنا محمد بن العلاءِ يعني أبا كريب الهمداني، ثنا عثمانُ بنُ سعيدٍ يَعْنِي الزياتَ الْكوفيَّ، ثنا بشرُ بنُ عمارَةَ، عنْ أَبِي روقٍ، عَنِ الضَّحَّاكِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: "أَوَّلُ مَا نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ لَهُ جِبْرِيلُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: بِسْمِ الله ، يَقُولُ: اقْرَأْ بِذِكْرِ رَبِّكَ وَقُمْ وَاقْعُدْ بِذِكْرِهِ بِسْمِ اللهِ الرحمن، قَالَ: يَقُولُ :الرَّحْمَنُ: الْفَعْلانُ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ مِنْ كَلامِ الْعَرَبِ".

وفي **تفسير غريب القرآن** لابن قتيبة: "الرّحمن الرحيم: صفتان مبنيتان من الرحمة"(٦٩).

يقول الطبري في بنية "الرحمن" فهو ما قال به عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فيقول: "وأما "الرحمن" فهو فَعلان من رَحم"(٧٠). ثم يبين سنة العرب في هذه البنية فيقول: "والعرب كثيرًا ما تبني الأسماء من "فَعِل يفْعَل" على فعلان، كقولهم من غَضِب: غَضبان، ومن سَكر: سكران، ومن عَطش: عطشان. فكذلك قولهم "رَحمن" من رَحِمَ"(٧١). وأما الرحيم فيقول الطبري فيه: " و"الرحيم" فعيل منه أي رَحِمَ يَرْحَمُ". ويقول أيضاً: "وقيل "رحيم"، وإن كانت عَين "فعِل" منها مكسورة، لأنه مدح. ومن شأن العرب أن يحملوا أبنية الأسماء ـ إذا كان فيها مدح أو ذم ـ على "فعيل"، وإن كانت عين "فعل" منها مكسورةً أو مفتوحةً، كما قالوا من "علم" عالم وعليم، ومن "قدَر" قادر وقدير"(٧٢).

وأمّا في دلالة الكلمة ففيه أقوال: عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، "الرحمن الرحيم: الرقيقُ الرفيقُ بمن أحبَّ أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنُف عليه"(٧٣).

ويقول أبو عبيدة فيهما في **مجاز القرآن**: "الرَّحْمَن مجازه ذو الرحمة"، و"الرَّحِيم مجازه الرّاحم"(٧٤). وهو على رغم بيان المعنيين المختلفين للكلمتين المختلفتين المشتقّتين من أصل واحدٍ، لا يفرِّق بينهما فيسهب قائلاً مبيِّناً سنّة العرب فيه: "وقد يقدّرون اللفظين من لفظ واحد والمعنى واحد، وذلك لاتّساع الكلام عندهم، وقد فعلوا مثل ذلك فقالوا: ندمان ونديم" ثم يبيِّن استخدام الكلمتين في أبيات عربية مختلفة،

٦٩- في باب اشتقاق أسماء الله وصفاته، وإظهار معانيه انظر ابن قتيبة: **تفسير غريب القرآن**، ص ٦.

٧٠- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٦.

٧١- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٧٢- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٧٣- انظر: المرجع السابق، ١/ ١٢٩، وفيه: حدثنا به أبو كريب، قال: حدثنا عثمان بن سعيد، قال: حدثنا بشر بن عمارة، قال: حدثنا أبو رَوْق، عن الضحاك، عن عبد الله بن عباس، قال: الرحمن، الفعلان من الرحمة، وهو من كلام العرب. قال: الرّحمن الرحيم: الرقيقُ الرفيقُ بمن أحبَّ أن يرحمه، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنُف عليه. وكذلك أسماؤه كلها. ومثلها في **تفسير ابن أبي حاتم**، ١/ ٢٦ وفيه: حَدَّثَنَا ابْنُ طَاهِرٍ، ثنا محمّد بن الْعلاء يعني أَبا كريْب الهمداني، ثنا عثمان بن سعيد يعْني الزيات، ثنا بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس، قال: "أول ما نزل جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، قال له جبريل: قل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، يقول: الرَّحِيم: الرَّقِيقُ الرَّفِيقُ لِمَن أحبَّ أَنْ يَرْحمه، البعيدُ الشَّدِيدُ على من أحبَّ أنْ يعَنِّفَ عليه الْعذاب".

٧٤- أبو عبيدة، **مجاز القرآن**، ١/ ٢١.

ومنها: قول البُرْج بن مُسْهِر الطائيّ الجاهلي(٧٥):

ونَدْمانٍ يزيد الكأسَ طِيباً سَقيتُ وقد تغوَّرت النجومُ

وقول النُعْمان بن نَضْلَة(٧٦)، عَدويٌّ من عَدي قُريش:

فإن كنتَ نَدْماني فبالأكبر أسْقِني ولا تَسقِني بالأصغر المُتَثلمِ

وقول بُرَيق الهذليّ(٧٧):

رُزينا أبا زيدٍ ولا حيَّ مِثْلَه وكان أبو زيد أخي ونديمي(٧٨)

وقول حَسّان بن ثابت(٧٩):

لا أخدِشُ الخَدْش بِالنَّديمِ ولا يَخْشَى نَدِيمي إذا انتشيتُ يَدِي(٨٠)

وبنقل موجز هذا القول يكتفي ابن قتيبة في **تفسير غريب القرآن** له فيقول: "قال أبو عبيدة: وتقديرهما: ندمان ونديم".

٧٥- البُرج بن مسهر بن جلاس بن الأرث الطائي: شاعر، من معمّري الجاهلية. كانت إقامته في ديار طيء بنجد. اختار أبو تمام في **حماسته** أبياتاً من شعره. انظر: الزركلي، **الأعلام**، ٢/ ٤٧.

٧٦- هو النعمان بن عديّ بن نضلة العدوي: شاعر صحابي، من الولاة. هاجر مع أبيه إلى الحبشة، ولاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على "ميسان" ولم يولّ عمر أحداً من قومه (بني عديّ) غيره، لما كان في نفسه من صلاحه. توفّي سنة ٣٠ من الهجرة. **الإصابة**، ٦/ ٢٤٣ و **الأعلام**، ٨/ ٣٨.

٧٧- هو البُريق بنُ عِياضِ بْنِ خُوَيلِدِ الخُنَاعِيُّ، له شِعرٌ. انظر: أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، **شرح أشعار الهذليين**. تحقيق: عبد الستار أحمد فراج ومحمود شاكر، مكتبة دار العروبة، القاهرة، الجزء ٢، ص ٧٤١ ـ ٧٦٠.

٧٨- والبيت في قصيدة قالها في رثاء أخيه، انظر: **ديوان الهذليين**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٥م، ٣/ ٦١، و**شرح أشعار الهذليين**، ٢/ ٧٤٥، والبيت فيهما:

أَصَبْنَ أَبَا زَيدٍ وَلَا حَيَّ مِثْلَهُ وَكانَ أَبُو زيدٍ أَخِي ونَدِيمي

٧٩- هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو بن زيد مناة بن عدي بن عمرو بن مالك ابن النجار الأنصاري الخزرجي ثمّ النجاري، شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال ابن سعد: عاش في الجاهلية ستين وفي الإسلام ستين ومات وهو ابن عشرين ومائة. **الإصابة**، ٢/ ٨ – ٩.

٨٠- أبو عبيدة، **مجاز القرآن**، ١/ ٢١ – ٢٢، وانظر: عبد الرحمن البرقوقي، **شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري**، المطبعة الرحمانية بمصر، ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م، ص ١١٢، وفيه:

لَا أَخْدِشُ الخَدْشَ بِالنَّدِيمِ وَلا يَخْشَى جَلِيسِي إِذَا انْتَشَيْتُ يَدِي

ففحوى القول أن الرّحمن والرّحيم صفتان مشتقّتان من أصل واحدٍ "رحم" وذلك لاتّساع الكلام عند العرب، وهذا عندهم شائع جدّاً مثلاً قالوا: ندمان ونديم وغير ذلك.

من هذا الشرح ينشأ هنالك سؤال عن أسلوبية القرآن الكريم وهي فائدة تكرار هذين الاسمين المشتقّين من أصل واحدٍ أي "رحم" ويقول فيه أبو عبيدة أنهما لفظان بمعنى واحدٍ، وكيف وقع ذلك في القرآن الكريم الكتاب المعجز الذي لا تطويل فيه ولا إسهاب ولا حشو؟ ولم هذا التكرار للفظين من أصل واحدٍ والمعنى واحدٌ؟ يجيب عنه الطبري في **جامع البيان**: "لكل كلمة منهما معنى لا تؤدي الأخرى منهما عنها"(٨١). ثم يسوق الطبري تلك الروايات المأثورة والأخبار المنقولة التي يعتمد الطبري عليها في ابتناء رأيه هذا على ثلاثة تأويلات: أوّلاً: تلك الآثار التي تدلّ على أن الرحمن يدل على عموم الرحمة، والرّحيم على خصوص الرحمة(٨٢). ثانياً: تأويل ابن عباس المذكور في معنى الرّحمن والرّحيم، فيقول الطبري: "وهذا التأويل من ابن عباس، يدل على أن الذي به ربُّنا رحمن، هو الذي به رحيم، وإن كان لقوله "الرحمن" من المعنى، ما ليس لقوله "الرحيم". لأنه جعل معنى "الرحمن" بمعنى الرقيق على من رقَّ عليه، ومعنى "الرحيم" بمعنى الرفيق بمن رفق به"(٨٣). وثالثاً: ثم يبيِّن السبب الآخر بتأويل عطاء الخراساني يقول: "كان الرحمن، فلما اختزلَ الرحمن من اسمه كان الرحمنَ الرحيمَ"(٨٤).

ويشرح الطبري هذا القول بقوله: "والذي أراد، إن شاء الله، عطاءٌ بقوله هذا: أن الرحمن كان من أسماء الله التي لا يتسمَّى بها أحد من خَلقِه، فلما تسمَّى به الكذابُ مسيلمة ـ وهو اختزاله إياه، يعني اقتطاعه من أسمائه لنفسه ـ أخبر الله جلّ ثناؤه أن اسمه "الرحمنُ الرحيمُ" ليفصِل بذلك لعباده اسمَهُ من اسم من قد تسمَّى بأسمائه، إذ كان لا يسمَّى أحد "الرحمن الرحيم"، فيجمع له هذان الاسمان، غيره جلّ ذكره. وإنما يتسمَّى بعضُ خَلقه إما رحيما، أو يتسمَّى رَحمن. فأما "رحمن رحيم"، فلم يجتمعا قط لأحد سواهُ، ولا يجمعان لأحد غيره. فكأنّ معنى قول عطاء هذا: أن الله جل ثناؤه إنما فَصَل بتكرير الرحيم على الرحمن، بين اسمه واسم غيره من خلقِه، اختلف معناهما أو اتفقا"(٨٥).

٨١- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٢٦.

٨٢- المرجع السابق، ١/ ١٢٧ - ١٢٩.

٨٣- المرجع السابق، ١/ ١٢٩.

٨٤- المرجع السابق، ١/ ١٣٠، وفيه: "حدثني به عمران بن بكّار الكلاعي، قال: حدثنا يحيى بن صالح، قال: حدثنا أبو الأزهر نصر بن عمرو اللَّخمي من أهلِ فلَسْطين، قال: سمعت عطاء الخراساني يقول ...".

٨٥- الطبري، **جامع البيان**، ١/ ١٣٠.

ثمّ يعلّق الطبري على قول عطاء الخراساني بقوله: "والذي قال عطاءٌ من ذلك غيرُ فاسد المعنى، بل جائز أن يكون جلّ ثناؤه خصّ نفسه بالتسمية بهما معًا مجتمعين، إبانةً لها من خلقه، ليعرف عبادُه بذكرهما مجموعينِ أنه المقصود بذكرهما دون مَن سواه من خلقه، مع مَا في تأويل كل واحد منهما من المعنى الذي ليس في الآخر منهما"(٨٦).

وأمّا قول أبي عبيدة في **مجاز القرآن** "أن الرحمن مجازه ذو الرحمة، و الرحيم مجازه الراحم"، وقوله: "قد يقدِّرون اللفظين من لفظٍ والمعنى واحد، وذلك لاتساع الكلام عندهم"، فيردّ عليه الطبري ويقول: "ولا شك أن ذا الرحمة هو الذي ثَبت أن له الرحمة، وصحَّ أنها له صفة، وأن الراحم هو الموصوف بأنه سيرحم، أو قد رحم فانقضى ذلك منه، أو هو فيه"(٨٧).

وبحثنا الأخير في البسملة هو البحث الأسلوبي الآخر: سبب تقديم اسم "الله" على صفتيه "الرّحمن الرّحيم" وتأخير صفته "الرّحيم" من صفته "الرّحمن".

لا نجد هذا البحث عند أحد من المفسّرين المذكورين سوى الطبري فهو يقول في هذه المسألة: "قيل: لأن من شأن العرب، إذا أرادوا الخبر عن مُخبَر عنه، أن يقدِّموا اسمه، ثم يتبعوه صفاتِه ونعوتَه. وهذا هو الواجب في الحكم: أن يكون الاسم مقدَّمًا قبل نعته وصِفَته، ليعلم السامع الخبرَ، عمَّن الخبرُ"(٨٨).

ثم يستطرد فيها الطبري فيقول: "وكانَ لله جلَّ ذكره أسماءٌ قد حرَّم على خلقه أن يتسمَّوا بها، خَصَّ بها نفسه دونهم، وذلك مثلُ "الله" و "الرحمن" و "الخالق"، وأسماءٌ أباحَ لهم أن يُسمِّيَ بعضهم بعضًا بها، وذلك: كالرحيم والسميع والبصير والكريم، وما أشبه ذلك من الأسماء ـ كان الواجب أن تقدَّم أسماؤه التي هي له خاصة دون جميع خلقه، ليعرف السامعُ ذلك مَنْ تَوجَّه إليه الحمد والتمجيدُ، ثم يُتبع ذلك بأسمائه التي قد تسمى بها غيره، بعد علم المخاطب أو السامع من توجَّه إليه ما يتلو ذلك من المعاني. فبدأ الله جل ذكره باسمه الذي هو "الله"، لأن الألوهية ليست لغيره جلّ ثناؤه من وجهٍ من الوجوه، لا من جهة التسمِّي به، ولا من جهة المعنى. وذلك أنا قد بيَّنَّا أن معنى "الله" تعالى ذكره المعبود، ولا معبودَ غيرُه جل جلاله، وأن التسمِّي به قد حرّمه الله جل ثناؤه، وإن قصد المتسمِّي به ما يقصدُ المتسمِّي بسعيد وهو شقي، وبحسَنٍ وهو قبيح.

٨٦- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

٨٧- المرجع السابق، ١/ ١٣٢.

٨٨- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

أوَلا تَرى أن الله جلّ جلاله قال في غير آية من كتابه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾(٨٩) فاستكبر ذلك من المقرِّ به، وقال تعالى في خُصوصه نَفسَه بالله وبالرحمن: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾(٩٠).

ثم ثنَّى باسمه الذي هو الرحمن، إذ كان قد مَنع أيضًا خلقه التسمي به، وإن كان من خلقه من قد يستحق تسميته ببعض معانيه. وذلك أنه قد يجوز وصْف كثير ممّن هو دون الله من خلقه، ببعض صفات الرحمة. وغير جائز أن يستحق بعضَ الألوهية أحد دونه. فلذلك جاء الرحمن ثانيًا لاسمه الذي هو "الله".

وأما اسمه الذي هو الرحيم فقد ذكرنا أنه مما هو جائز وصف غيره به. والرحمة من صفاته جل ذكره، فكان ـ إذ كان الأمرُ على ما وصفنا ـ واقعًا مواقع نعوت الأسماء اللواتي هنّ توابعُها، بعد تقدم الأسماء عليها. فهذا وجه تقديم اسم الله الذي هو "الله"، على اسمه الذي هو "الرحمن"، واسمه الذي هو "الرحمن" على اسمه الذي هو "الرحيم"(٩١).

وفي بيان الطبري المذكور توضيح لا يحتاج إلى بيان مزيد، وشرح لا حاجة إلى الكلام فيه والتعليق عليه، إذ فيه كفاية.

وإن الدراسات اللسانية الحديثة تهتمّ بـ: الصوتيات وبنية الكلمة وبناء الجملة والدلالة والأسلوب، ونحن في هذه الدراسة الموجزة لنرى أن في كتب المفسِّرين المتقدِّمين ثروة وفيرة بهذا الصّدد، وهي لغنيّة بكلِّ أبحاثٍ لسانيّة، وأمّا المفسّرون المتأخِّرون فزادوا في تلك الأبحاث حتى أسهبوا فيها وطوّلوها أكثر من الضرورة وصارت تفاسير أكثرهم أقرب من كتب اللغة والنحو والبلاغة من كتب التفسير. وما من دراسة لسانية حديثة إلا نجد بذرتها في أمّهات كتب تفسير القرآن الكريم التي دونت في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية على صاحبها الصلوة والسلام.

وبعد أن حللنا الكلمات الخمس التي تشتمل عليها آية: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حسب أصول علم الأصوات الحديثة مستقلّةً في حالة الإفراد لنجد عشرة مقاطع، كلمتان أوليان "بِ، اسم" تشتمل كل واحدةٍ منهما على مقطعٍ واحدٍ، والثالث "الله" على مقطعين و الرّابع والخامس "الرّحمن، الرّحيم" تشتمل كلُّ واحدةٍ منهما على ثلاثة مقاطع، فمجموع المقاطع عشرة:

٨٩- سورة النمل، الآية: ٦٠- ٦٤.

٩٠- سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

٩١- المرجع السابق، الصفحة نفسها.

[قصير]+[عنقودي]+[متوسط+طويل]+[متوسط+متوسط+طويل]+[متوسط+قصير+طويل].

أربعة مقاطع متوسطة وثلاثة طويلة ومقطعان قصيران ومقطع عنقودي.

وأمّا الفونيمات فهي هكذا:

[ص+ح]+[ص+ح+ص+ص]+[ص+ح+ص/ ص+ح+ص]+[ص+ح+ص/ ص+ح+ص / ص+ح+ص]+[ص+ح+ص/ ص+ح/ ص+ح+ص]

فمجموع الصوامت في هذه المقاطع العشرة:

(١)+(٣)+(٢)+(٢)+(٢)+(٢)+(٢)+(٢)+(١)+(٢)=(١٩)، ومجموع الحركات: ١×١٠=١٠ ـ سبع منها قصيرة وثلاث طويلة ـ فهنالك تسعة وعشرون فونيما في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حسب التحليل الإفرادي.

وأمّا إذا قمنا بالتحليل التركيبي فالنتيجة كالآتي:

"بِسْ" (ص+ح+ص) (cvc)، "مِلْ" (ص+ح+ص) (cvc)، "لَا" (ص+ح:) (cv:)، "هِرْ" (ص+ح+ص) (cvc)، "رَحْ" (ص+ح+ص) (cvc)، "مَا" (ص+ح:) (cv:)، "نِرْ" (ص+ح+ص) (cvc)، "رَ" (ص+ح) (cv)، "حِيْم" (ص+ح:+ص) (cv:c). تسعة مقاطع: [منغلق قصير، منغلق قصير، منفتح طويل، منغلق قصير، منغلق قصير، منفتح طويل، منغلق قصير، منفتح قصير، منغلق طويل] ستة مقاطع منغلقة ومنها: خمسة مقاطع قصيرة وواحد طويل، وثلاثة مقاطع منفتحة: طويلان و قصير.

وأمّا الفونيمات فهي أربعة وعشرون فونيماً، منها خمسة عشر صامتاً وتسع حركات: ثلاث حركات طويلة و ستّ حركات قصيرة.

ففي حالة التركيب جاء تخفيف مقطع واحدٍ وأربعة فونيمات.

وأمّا السبب لهذا النقص أو التخفيف في الحالة التركيبية فهو حذف همزات الوصل في: "اسم، الله، الرحمن، الرحيم". هذه أربع همزات ولكنّ مبلغ التخفيف خمسة فونيماتٍ فسببه أن همزة "اِسْم" حذفت مع حركتها ولم يُفِدْها تركيبها بكلمة سابقة بحركة إضافية حسب القواعد العربية أنه لا يجتمع الساكنان، وأمّا الهمزات الثلاث الأخيرة فحدث فيها ما حدث في الأولى ولكنّها استفادت كلماتها حركةً بسبب تركيبها بما قبلها، فهذه الهمزات الأخريات تسبّبت في حذفِ صامت واحدٍ وأمّا الهمزة الأولى فبسببها حُذفت حركة مع صامت. فالنتيجة أن هذه الكلمات الخمس التي تشتمل عليها آية: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اكتسبت ثلاثة فونيمات (ح،ح،ح) وخَسِرَت ثمانية أخرى (ص+ح،ص+ح، ص+ح،

ص+ح) حتى صارت بعد التركيب (٢٩-٨+٣=٢٤) أربعة وعشرين فونيماً.

ومن الملاحظ في الكلمات العربية أن الحرف الساكن يتبع المقطع الذي يسبقه أما إذا حُرِّكَ بسبب التركيب أو الآخر فإنَّه يكون مقطعاً مستقلاً إن كان الحرف اللاحق متحرّكاً، وإن كان ساكناً فيشكِّل معه مقطعاً جديداً، مثلاً: "م" في "اسم" كان في حالة الإفراد مع سابقيه جزءاً من مقطع "اسم" وأمّا إذا جاء في حالة التركيب فتركّب مع اللاحق (ل)وشكّل مقطعاً جديداً، هكذا "ن" في "الرّحمن".

Abstract

Linguistic Studies of *Basmalah* in the First Three Centuries

Studies in modern linguistics mostly relate to phonetics, the structure of the word (Morphology), structure of the sentence (Syntax) and Semantics. This article tries to highlight worthy contributions of the Qur'ānic exegets of the first three centuries A.H.

Seeing their abundant and profound knowledge and its application to the interpretation of the Qur'ān, we feel compelled to acknowledge their great contribution to the modern linguistics and we come to know that all the sciences of Arabic Language like Arabic sounds, morphology, syntax, semantics, and rhetorics etc. emerged to understand the Holy Qur'ān and to attain the best knowledge of the meanings and concepts it contains. Therefore, whoever wanted to interpret the meanings of the Holy Qur'ān is compelled to acquire profound knowledge of these sciences of Arabic language. Thus there is a strong correlation and inseparability between the Arabic sciences and the Qur'ānic sciences.

We find that the contributions of the interpreters of the Qur'ān in the first three centuries to the above fields are praiseworthy in that these laid the basic and firm foundations of the linguistics.

The commentaries on the Qur'ān written in the first three centuries after *Hijrah* have been the authentic source for the understanding of the Qur'ān. Hence, these commentaries should be relied upon for the linguistic study of the Qur'ān and Arabic literature as well. This article presents the linguistic study of *Basmalah* in the light of the Qur'ānic commentaries of the above

mentioned era in order to illustrate the extent of Muslims' literary and linguistic contribution to the knowledge of the Qur'ān.

****